نظرية التطور

(معالجة لأسس الداروينية وردٌ على الإلحاد)

نظرية التطور

(معالجة لأسس الداروينية وردٌّ على الإلحاد)

جيار حاجي أوغلو

اسم الكتاب: نظرية التطور (معالجة لأسس الداروينية وردٌ على الإلحاد).

اسم المؤلف: جيار حاجي أوغلو.

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 9933 - 567 - 11 - 8

الناشر: دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سنة الطباعة: 2017.



يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عقل للنشر والدراسات والترجمة

سورية - دمشق - جرمانا - ص.ب: 249 جرمانا

هاتف: 00963 11 5618956

: 00963 11 5637060

فاكس: 00963 11 5632860

aklpublishing@gmail.com

مقدمة الكاتب

يقـول أوشو عـن الحقيقة: «الحقيقـة ليست شيئـاً عليك أن تخلقه وهي ليسـت شيئـاً بعيـداً عنك، الحقيقـة موجودة هنا والآن، وهـي محيطة بك كما يحيـط المحيـط بالأسمـاك. ربمـا لا تعـي الأسماك ذلـك لكنهـا إن أصبحت مدركـة للمحيط فسوف تستنير. إن الأسماك غير مدركـة للمحيط ولا يمكنها أن تـدرك لأنها وُلِدَت وعاشت وستختفـي فيه، إنها جزء منه كما الموجة جزء منـه. ربما لن تعرف الأسمـاك المحيط، لتعـرف شيئاً ما أنت بحاجـة لمسافة صغـيرة عنـه، لتعـرف شيئـاً مـا أنـت بحاجـة إلى فسحـة صغـيرة».

وهذا الوضع هـو نفسه بما يتعلق بالحقيقـة، وتستطيع هنا أن تستخدم كلمـة المطلـق إن كنـت ترغـب. هذا هـو الوضع مـع المطلـق، ليسـت المشكلة بأنهـا بعيـدة ولا نعرف شيئـاً عنها بل لأنهـا قريبة جداً وحتـى قولك لعبارة «قريبـة جـداً» غير دقيـق، لأنك هي. إنها فـي الداخل والخـارج، إنها الكل بـدون استثنـاء، فأنـا لا ألـوم البعض لعـدم رؤيتهـم لحقيقة الخالـق فهي بداخـل كل إنسـان وبفطرتـه وبخلايـاه وشرائـط الدنـا وذرات الكاليسيوم والشمس والقمـر والكـون وكل مايـدور حولنـا، إن كل مـا علينـا فعلـه هـو الابتعـاد قليـلاً عـن ذاتنـا لـنرى الحقيقـة.

بإمـكان الكتـاب إيضـاح الطريق لك. بالإمـكان الإشارة إلى الطريق كمـا تشـير الأصابـع إلى القمـر، ليست الأصابـع قمراً لكن مـن الواضح أن

بإمكانها الإشارة إلى القمر.

هذه هي «النقاط السبع للتدريب الذهني» للمعلم (أتيشا) وهي عبارة عن أصابع، سبعة أصابع تشير إلى القمر. لا تقع في مصيدة الأصابع ولا تجعلها تستحوذ عليك لأنها ليست الهدف، إن استحوذتْ عليك ستفقد الهدف، استخدم الأصابع وراقب إلى أين تشير ومن ثم انسها، من يأبه بالأصابع عندما يرى القمر؟ من يتذكر الأصابع عندما يرى الهدف الذي أشارت إليه؟ تصبح الأصابع مهملة أوتوماتيكياً ومن ثم تختفي.

وكتابي هنا هو الأصابع لا أكثر ولا أقل،، انظر إلى أين يشير ثم أهمل التفاصيل.

❒ ❒ ❒

المقدمة

للوجود والحياة ولعالم الأحياء ولا سيما الإنسان - الذي يحتل موقعاً متميزاً فيه - نواح متعددة تشكل أساساً لعلوم مختلفة. وحتى لو تناولنا الإنسان وحده في هذا الموضوع رأينا ظهور علوم عديدة كالمورفولوجيا والفيزيولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع والطب والجينات وعلوم أخرى عديدة. وكل علم من هذه العلوم اختصاص قائم بذاته وله مختصون متفرغون. ولكن لم يكن للكون بأجمعه ولا للإنسان ولا للأحياء متخصصون. لذا لم يكن بالإمكان حل المشكلات المتعلقة بالوجود وبالإنسان بهذه العلوم، ولا قول الشيء النهائي والأمر الفصل فيها. لذا كانت هناك حاجة كبيرة لمراكز متكاملة تستطيع إنتاج معلومات وأفكار تفهم الإنسان وإنتاج التكنولوجيا ووضع النظريات والأفكار العامة التي تخاطب الشعور الجماعي وتكون في مستوى العصر وقادرة على احتضان جميع أموره وفتح الآفاق أمامه. وأنا شخصياً أتوقع أن العديد من الكتب ستؤلف في هذا الخصوص (علم الإنسان وظهوره) في السنوات القادمة وستطرح العديد من الأفكار البديلة في هذا الخصوص، كما ستشارك العديد من المراكز العلمية في هذا الأمر لتغذي وجهات النظر المنطقية وتثريها. وسيقوم آنذاك عدد من المفكرين ومن العلماء المحظوظين بكتابة قصة الوجود من جديد، وسيكتشفون كل

شيء وكل الأحياء - ولا سيما الإنسان - من جديد ليضعوا الحقائق حول مدى سعة عالم الإنسان والأنثروبولوجيا أمام الأنظار وليشرحوا بشكل واضح المواضيع التي تشكل قواعد الوجود وأسسه.

وعلاوة على هذا نستطيع أن نقول بأن المختبرات الحديثة تقوم اليوم بفحص الأحياء بدقة غير مسبوقة، حتى أن المادة والجزيئة والخلية أصبحت معلومة بمقياس كبير، وبدت السؤال وجميع أجزاء الخلية حتى أصغرها وأدقها معروضة أمام الأنظار بفضل الأشعة السينية والعديد من أنواع الأشعة الخارقة الحديثة التي أصبحت ترى الجنين في بطن أمه بأبعاده الثلاثة، كما قامت بعض المختبرات الحديثة وبعض مراكز البحوث بإلقاء الضوء ليس على التركيب المادي فقط لجزيئات البروتين وحسب بل على طبيعة الأواصر التي تربط هذه الجزيئيات الكبيرة ببعضها البعض وطبيعة عمل الأنزيمات التي تفرق وتركب هذه الجزيئات وتأثيرها، وكذلك القوانين السارية في الخلايا والروابط التي تربط الأنسجة التي تشكلها هذه الخلايا مع الأعضاء الداخلية، وطبيعة السوائل في الجسم كالدم والصفراء وعلاقاتها مع بيئتها وكذلك تأثير المواد الكيماوية على الجسم وعلى الشعور.... كل هذه الأمور أصبحت معلومة ولو نسبياً.

ولكن على الرغم من هذا التقدم الذي يستحق كل تقدير في ساحة العلم، فمازالت نظرية التطور هي الأساس لتفسير تطور الإنسان ونشأته الأولى. وكأن الأشياء لعبة بيد الصدف العمياء تتطوح ذات اليمين وذات الشمال، وكأن الأحياء لقمة بسيطة وسائغة بين الأسنان الوحشية للـ «الانتخاب الطبيعي». أما الإنسان فقد هوي بمكانته وجعل في مقعد متفرج نكد الحظ يتفرج على جلد الموت، وحكم عليه أن يرى ويسمع ويعيش ما يجري أمامه. بينما لو تم النظر من زاوية أخرى لكان في الإمكان مشاهدة حقيقة وجود تساند وتعاون في كل جزء من أجزاء

هذا الكون، ووجود نظام وتناغم دقيق فيه، ولظهر أن كل شيء قد خطط لهدف معين ولغاية محددة، وأن كل شيء مرتب ككتاب وكمعرض رائع وكامل يذهل العقول.

في كتابي هذا لست هنا في معرض محاكمة النظرة الحالية الخاطئة لنظرية التطور ولا التحري عن أسبابها وحسب، ولكن من المفيد التأكيد على بعض الأمور: أولًا إن الوسط العلمي عندنا في عهد معيّن قد جُر إلى وسط الفوضى، وربط بمحور معين بحيث أن العديد من مراكز البحوث العلمية والمختبرات انجرّت دائماً وراء سؤال: «كيف؟» ولم يلتفت الباحثون إلى سؤال «من؟»، «لماذا؟» وأنشأ نظام التعليم أجيالًا لا تفكر إلا في الإجابة على «كيف؟» ولا تفكر في الإجابة على «لماذا» أو «من»؟

معظم المسائل التي سأتناولها هنا ربما هي خارجة عن ساحتي وأقصد بها المسائل المتعلقة بالخالق والتوحيد، إلا أنني أرى أن من واجبي تدقيق هذه المسألة على قدر طاقتي لأنها مترابطة مع موضوع التطور، فالتأكيد على خطأ نظرية التطور يستدعي منا أن نثبت البديل وأن نبرهن عليه وأن نحكم ونتبناه. علماً بأنني أدرك جيداً مدى صعوبة حمل هذه المسؤولية وعظمها. والحقيقة أن الذي قادني لهذا هو بعث الهمة والعزم عند المختصين لتناول هذا الموضوع وإظهار الحقيقة كاملة للأجيال التي داهمت الشكوك أذهانها وأفكارها واغتيل إيمانها منذ ما يزيد على قرن كامل.

❒ ❒ ❒

لماذا نظرية التطور؟

سألت أحد أساتذة الدين، لماذا لا نهتم بمعالجة نظرية التطور أو العمل على بحوث ودراسات يمكن أن تفيد مجتمعنا أو ترتقي به فكرياً وأن يصبح مخططاً لما بعد 50 عاماً من الآن كما فعل أعداؤنا وغيرهم حيث أن النتائج كانت إيجابية كما نرى اليوم في عالمنا العربي على الأقل، لماذا لا يكون في جامعاتنا قسم يختص بفلسفة الدين؟ ليس فقط تعليم الشريعة وترسيخ الإيمان عند المؤمن أصلاً.. فأجابني، ومن يهتم اليوم في نظرية التطور؟ أصلاً لم يبق لها أثر وحتى أن المؤمنون بها قلائل جداً في يومنا هذا، فالعلم تطور والدين اليوم قطع تلك المسافات وينظر إلى ما هو أكبر وأخطر وعملي أكثر..

ربما يفكر القارئ بنفس النتيجة، لماذا نظرية التطور ولماذا الآن تحديداً؟

فمن يهتم بها أصلاً و العلم و التكنولوجيا قد سبقا كل احتمالات قبولها..؟

لكي أجيب على هذا التساؤل وقبل أن أخوض في كتابي والبحث في نظرية التطور أود أن أسرد هذا التقرير عنها، فما هي نظرية التطور ولماذا هي بهذه الأهمية وأين يتم تدريسها في يومنا هذا..؟

التقرير الأول: بعنوان مستوى الدعم الذي تحظى به نظرية التطور في المؤسسات العلمية و الأكاديمية.

يقول التقرير:

«يزعم الكثير من معارضي ومنتقدي نظرية التطور أو كما يسمّونها «نظرية داروين» أن العلماء في الغرب أثبتوا أن النظريّة خاطئة منذ فترة بعيدة، وقد اعتزلوها، أو حتّى أنها لا تدرّس في جامعات أمريكا واليابان. هذه الافتراءات والمغالطات منتشرة بكثرة في مجتمعاتنا العربية، ولذلك ارتأينا أن نخصص مقالةً كاملة نستعرض فيها مجموعة من أحدث الأبحاث الإحصائيّة عن مدى دعم وقبول نظريّة التطور عند العلماء، المؤسّسات العلميّة، المجتمعات العلميّة، الأكاديميّات، وأفضل الجامعات عالميًا في علوم الأحياء والطب.

1) 97% من العلماء يؤيّدون نظريّة التطوّر: في العام 2009، نشر المعهد الإحصائي الشّهير Pew Research نتائج دراسة إحصائيّة سألت العلماء عن آرائهم بما يتعلّق بنشأة الحياة والأنواع الحيّة على الأرض، بما في ذلك الإنسان. بحسب نتائج الدّراسة، 97% من العلماء صرّحوا باعتقادهم أنّ الإنسان والكائنات الحيّة الأخرى تطوّروا عبر الزّمن. بينما وافق 2% من العلماء فقط على الدّعوى بأنّ الكائنات الحيّة والإنسان خلقت بصورتها الحاليّة. هذه النّتائج تظهر بوضوح أنّ هنالك إجماع علمي ساحق على حقيقة التطوّر، ورفض شبه تام لفرضيّات الخلق غير العلميّة.

2) 100 مؤسّسة علميّة، أكاديميّة، وبحثيّة عالميّة تصرّح بدعمها لنظريّة التطوّر: في العام 2008، نشر المركز الوطني لتعليم العلوم (NCSE) النّسخة الثّالثة من كتيّب (Voices for Evolution)، حيث جمع فيه تصريحات داعمة لنظرية التطور من قبل أكثر من 100 مؤسسة علمية، أكاديمية، وبحثية مختلفة. هذه القائمة شملت تصريحات من قبل

الأكاديميّة الوطنيّة للعلوم في أمريكا (National Science Academy) والجمعيّة الملكيّة في بريطانيا (Royal Society)، اثنتين من أهمّ المؤسّسات العلميّة في العالم. بالإضافة إلى ذلك، جمع الكتيّب تصريحات داعمة من أكثر من 55 مؤسّسة تعليميّة وتربويّة عالميّة[1].

3) 72 عالم أمريكي، كلّهم حاصلون على جائزة نوبل في العلوم: بعدما حاول الخلقيون في ولاية لويزيانا فرض فرضيّاتهم غير المثبتة على المنهاج التّعليمي بالقانون، وقّع 72 عالم أمريكي (كلّهم حازوا على جائزة نوبل في العلوم) و17 مؤسّسة علميّة على عريضة تؤيّد نظريّة التطوّر على أنّها التّفسير العلمي الوحيد المعتمد لنشأة الكائنات الحيّة، وترفض رفضًا قاطعًا تعليم فرضيّات الخلق في المدارس العامّة[2].

4) 10 مؤسّسات علميّة وأكاديميّة في العالم العربي والإسلامي: في العام 2006، أصدرت الشبكة العالميّة للأكاديميات العلميّة (Inter Academy Panel - IAP) تصريحًا دعمت فيه نظريّة التطوّر ودعمت تدريسها في المدارس والجامعات في مختلف دول العالم. ووقّعت على هذا التّصريح على الأقلّ 10 مؤسسات أكاديمية من العالم العربي والإسلامي، ألا وهي:

- أكاديمية بنجلاديش للعلوم (Bangladesh Academy of Sciences).
- أكاديمية البحث العلمي والتكنولوجيا، مصر (Academy of Scientific Research and Technology، Egypt).

(1) http: //www. people - press. org/2009/07/09/section - 5 - evolution - climate - change - and - other - issues

(2) http: //ncse. com/voices

- أكاديمية إندونيسيا للعلوم (Indonesian Academy of Sciences).
- أكاديمية الجمهورية الإسلامية الإيرانية للعلوم (Academy of Sciences of the Islamic Republic of Iran).
- أكاديمية مملكة المغرب (Academy of the Kingdom of Morocco).
- أكاديمية فلسطين للعلوم والتكنولوجيا (Palestine Academy for Science and Technology).
- الأكاديمية التركية للعلوم (Turkish Academy of Sciences).
- أكاديمية العلوم، جمهورية طاجيكستان (Academy of Sciences، Republic of Tajikistan).
- أكاديمية باكستان للعلوم (Pakistan Academy of Sciences).
- الأكاديمية الوطنية للعلوم لجمهورية قرغيزستان (National Academy of Sciences of the Kyrgyz Republic)[1].

5) 25 مؤسّسة تعلن معارضتها ورفضها التامّ لفرضيّات التّصميم الذّكي: لقد نشرت أكثر من 25 مؤسّسة، جامعة، ومجتمع علمي تصريحات تعلن فيها عن رفضها التام ومعارضتها لما يُسمّى بفرضيّات التّصميم الذّكي، ساحبةً عنها هالة العلميّة وكاشفة حقيقتها بأنّها حركة أيديولوجيّة غير مبنيّة على أدلّة أو أبحاث علميّة معتبرة[2].

6) أفضل الجامعات العالميّة في مجاليّ الطبّ وعلوم الأحياء أقامت كليّات خاصّة لدراسة الأنماط التطوّريّة في عالم الكائنات الحيّة، كما

(1) http: //www. interacademies. net/10878/13901. aspx
(2) https://en. wikipedia. org/wiki/List___of___scientific___bodies___explicitly___rejecting___Intelligent___design

أنّها تشيّد، تدعم، وتموّل أبحاثًا في علم النّفس، الطبّ، وعلوم سلوك الحيوان - وكلّها تعتمد على أصول النّظريّة الهامّة[1].
=

(1) **جامعات أمريكيّة**
- جامعة هارفارد Harvard University:
http: //www. oeb. harvard. edu/
- جامعة ستانفوردStanford University:
http: //www. stanford. edu/group/ecoevo/
- جامعة برينستونPrinceton University:
http: //www. princeton. edu/eeb/
- جامعة كاليفورنيا في بيركليUniversity of California، Berkely:
http: //evolution. berkeley. edu/
- جامعة ييلYale University:
http: //www. eeb. yale. edu/
- جامعة شيكاغو University of Chicago:
http: //pondside. uchicago. edu/ecol – evol/

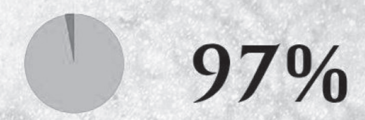
جامعات كنديّة
- جامعة تورنتو University of Toronto:
http: //www. eeb. utoronto. ca/site3. aspx
- جامعة كولومبيا البريطانيّة University of British Columbia:
http: //www. zoology. ubc. ca/evolution/

جامعات بريطانيّة
- جامعة كامبريدج University of Cambridge:
http: //www. biomed. cam. ac. uk/research/evol. html
- جامعة أوكسفورد University of Oxford:
http: //evolve. zoo. ox. ac. uk/Evolve/Welcome. html
- كليّة لندن الجامعيّة University College London:
http: //www. ucl. ac. uk/gee

جامعات ومراكز بحثيّة أوروبيّة
- معهد ماكس بلانك للبيولوجيا التطوّريّة
Max Planck Institute for Evolutionary Biology:
http: //www. mpg. de/153384/evolutionsbiologie
- جامعة ميونخ Ludwig Maximilians University Munich:
http: //www. eeslmu. de/

والمزيد المزيد حتى أنه فرع الأنثروبولوجيا الذي افتتح حديثاً في تركيا يعتمد أساساً على تدريس نظرية التطور. لم تمرّ علينا حتّى الآن جامعة واحدة معترف بها عالميًا ولا تدرّس نظريّة التطوّر في منهاجها على أنّها التّفسير العلمي الوحيد لنشأة الأنواع الحيّة على كوكب الأرض».

مستوى الدّعم الذي تحظى به
نظريّة التطوّر في المؤسّسات العلميّة والأكاديميّة



97%

بحسب بحث أجراه معهد Pew Research الإحصائي في العام 2009 97% من العلماء يعتقدون أنّ الإنسان والكائنات الحيّة الأخرى تطوّروا عبر الزّمن، ولم يخلقوا في صورتهم الحاليّة.

72 عالم أمريكي حاصل على جائزة نوبل

في شهادة جماعيّة ضدّ فرضيّة الخلق ودعمًا لنظريّة التطوّر، صرّح 72 عالم أمريكي (كلهم حاصلين على جائزة نوبل في العلوم) و17 مؤسّسة علميّة بدعمهم الكامل لتعليم نظريّة التطوّر في المدارس ومعارضتهم لفرضيّة الخلق.

100 مؤسسة علميّة، بحثيّة، وأكاديميّة عالميّة

المركز الوطني لتعليم العلوم (NCSE) أصدر كتيّبًا جمع فيه تصريحات داعمة لنظريّة التطوّر من قبل أكثر من 100 مؤسّسة علميّة، بحثيّة، وأكاديميّة عالميّة. هذا بالإضافة إلى تصريحات داعمة من أكثر من 55 مؤسّسة تعليميّة وتربويّة.

10 مؤسّسات علميّة وأكاديميّة في العالم العربي والإسلامي

في العام 2006، أصدرت الشبكة العالميّة للأكاديميّات العلميّة تصريحًا دعمت فيه نظريّة التطوّر ودعمت تدريسها في المدارس والجامعات. ووقّعت على هذا التّصريح على الأقل 10 مؤسّسات أكاديميّة من العالم العربي والإسلامي.

لمزيد من المعلومات حول نظريّة التطوّر والأدلّة العلميّة على صحّتها تابعونا على صفحتنا على الفيسبوك
www.facebook.com/TheTheoryOfEvolution

نظرية التطور
The Theory of Evolution

المصادر ومزيد من الشّواهد التي تظهر دعم المؤسّسات العلميّة، الجامعات العالميّة، والمجتمعات العلميّة لنظريّة التطوّر مرفقة مع هذه الصّورة

جامعات يابانيّة

- جامعة طوكيو University of Tokyo:

http: //www. biol. s. u – tokyo. ac. jp/english/eb. html

- جامعة كيوتو Kyoto University:

http: //gcoe. biol. sci. kyoto – u. ac. jp/gcoe/

جامعات استراليّة

- جامعة ميلبورن University of Melbourne:

http: //science. unimelb. edu. au/evolutionary – biology

- الجامعة الوطنيّة الأستراليّة National Australian University:

http: //biology. anu. edu. au/Research/era3/

التقريـر الثـاني:

التقريـر بعنوان: هل تدعو نظريّة التطوّر إلى الإلحاد، إنكار الإلوهيّة، محاربـة الأخـلاق، أو إعـدام الرّوحانيّـة فـي المجتمعـات الإنسانيّـة؟

يقول التقرير:

«يزعـم بعضـ الخلقيين ومحاربي نظريّـة التطـوّر العلميّة أنّ النّظريّة تهـدف إلى نشـر الإلحـاد، محاربـة الأخـلاق، وسلـخ الشّبـاب عـن القيـم الإنسانيّـة التـي نشؤوا عليهـا. هـذه الهجمـات الأيديولوجيّـة المتكرّرة ضدّ النّظريّـة جعلـت الكثـير من الشّباب غـير المتعلّـم يساوي، ظلمًـا وبغير حقّ، نظريّـة التطـوّر مـع الفلسفـة المادّيّـة، وحتّـى أحيانًا دارويـن مـع الشّيطان الأكـبر. ولكـن هل تدعـم الحقائـق هـذه الدّعـاوى والاتّهامات؟ هـل تنفي نظريّـة التطـوّر وجـود الخالق؟ هـل كلّ المؤمنـين بصحّة نظريّـة التطوّر هم ملاحـدة يحاربـون الأديـان ويتمنّـون بوارهـا؟

بدايـةً، ليسـ في نظريّـة التطوّر أو في أيّ مـن افتراضاتها مـا ينفي وجـود الخالـق أو المدبّـر. علـى العكـس، نظريّـة التطوّر هـي نظريّـة علميّة تحـاول تفسـير التنوّع الهائل عنـد الكائنات الحيّة بآليّـات طبيعيّـة بإمكاننا دراستهـا وفهمهـا بأسلوب تجريبي خاضـع للاختبار والتّكرار. ولهذا السّبب بالـذّات سمّى داروين كتابه «فـي أصل الأنواع عن طريق الانتقـاء الطبيعي – أو بقاء الأعراق المفضلة في أثناء الكفاح من أجل الحياة». نظريّة التطـوّر الحديثـة، والتـي تختلـف بعض الشّـيء عـن النّظريّـة الأصليّة التي تقـدّم بهـا داروين، تقوم علـى قوانين علـم الوراثة (Genetics) وقوانين علـم البيئـة (Ecology)، وتهدف إلى شـرح وتفسير الظّواهـر البيولوجيّة مـن منظـور علمـي وتاريخـي. وليسـ هنالك فـي تقنـين الظّواهـر الطّبيعيّة فـي علـم الأحياء وفهـم أنماطها مـا ينفي وجود الخالـق أو المدبّر، كما أنّ فهـم وتقنـين الظّواهـر الطّبيعيّـة فـي علـم الفيزيـاء أو الكيميـاء لا ينفـي

وجود الخالق بأيّ حال. ولذلك كتب داروين ذات مرّة في دفتره الشّخصيّ معبّرًا عن دهشته من ردّة فعل الخلقيين تجاه نظريّته قائلا: «يمكننا أن نسمح للأقمار، الكواكب، الشّموس، الكون، لا وبل حتّى نظم كاملة من الأكوان أن تكون محكومة بقوانين، ولكن أصغر الحشرات نودّ أن تكون قد خلقت فورًا بفعل خاصّ».

في هذه المقالة، نودّ أن نستعرض مواقف المؤسّسات الدّينيّة والعلماء المؤمنين من نظريّة التطوّر ومن حقائقها المركزيّة. وسنثبت بالأدلّة والبراهين أنّ النّظريّة ليس لها علاقة بالإلحاد أو الكفر بالخالق، إنّما هي نظريّة علميّة – كغيرها من النّظريّات العلميّة – تحاول تفسير بعض الظّواهر الطّبيعيّة في الكون. ولكن قبل أن نشرع باستعراض الأدلّة، نودّ أن نتعرّض لمسألة عامّة عادة ما تُثار في إطار حديثنا عن نظريّة التطوّر: مسألة خلق آدم وحوّاء.

عادة ما يهاجم الخلقيّون نظريّة التطوّر لأنّها – بحدّ زعمهم – تعارض النّصوص الواردة في الكتب السّماويّة عن خلق آدم وحوّاء – ولذلك فإنّها تدعو إلى هدم الأديان أو تدمير مصداقيّة القصص الدّينيّة. بدايةً، لا بدّ لنا أن نذكر أنّ نظريّة التطوّر لا تفسّر نشأة الإنسان فحسب، ولكنّها نظريّة جامعة تحاول تفسير نشأة جميع الأنواع الحيّة، والإنسان ليس إلاّ نوعًا واحدًا من بين الأنواع الحيّة الأخرى.

ثانيًا، نظريّة التطوّر بالفعل تتعارض مع التّفسيرات التّقليديّة والحرفيّة لهذه القصّة الدّينيّة، ولكنّها لا تتعارض مع التّفسيرات المعنويّة لتفاصيل خلق آدم وحوّاء. الخلقيّون أنفسهم، على سبيل المثال، لا يعارضون مسألة تفسير خلق السّماوات والأرض في 6 أيّام بتفسيرات معنويّة، ولكن عندما يتعلّق الأمر بنشأة الجنس البشري – عادة ما يُصرّون على

التّفسيرات التّقليديّة التي تتعارض ظاهرًا مع العلم الحديث.

ثالثًا، سنشير في الأدلّة التي سنستعرضها بعد قليل إلى أنّ بعض العلماء والمؤسّسات الدّينيّة في كلّ من اليهوديّة، النّصرانيّة، والإسلام ذهبوا بالفعل إلى تفسير (أو حتّى إمكانيّة تفسير) قصّة آدم وحوّاء بتفسيرات معنويّة لا تتعارض مع نتائج نظريّة التطوّر.

الأدلّة على حياديّة نظريّة التطوّر بما يتعلّق بمسائل الدّين والإيمان:

1) 40% من العلماء الذين يؤمنون بالتطوّر يؤمنون بتدخّل الله في عمليّة التطوّر أيضًا: في استطلاع علمي هام أجري في العام 1997، واستهدف عيّنة مكوّنة من 1000 عالم كانوا على قائمة (رجال ونساء العلم الأمريكيون American Men and Women of Science)، تبيّن أنّ 40 % من العلماء يعتقدون أنّ الإنسان وغيره من الكائنات الحيّة تطوّروا عبر الزّمن، ولكنّهم يعتقدون أيضًا انّ الخالق أرشد ووجّه عمليّة التطوّر. على الجهة الأخرى، 55 % من العلماء يعتقدون أنّ التطوّر حدث بدون تدخّل إلهي مباشر في العمليّة.

في استطلاعٍ مماثل أجراه معهد Pew Research الإحصائي في الـ 2009، والذي استهدف علماء من الرّابطة الأمريكيّة لتقدّم العلوم (American Association for the Advancement of Science)، وهي أكبر تجمّع علمي في العالم، تبيّن أنّه على الأقلّ 8 % من العلماء أيضًا يعتقدون أنّ التطوّر حدث ولكن برعاية أو توجيه إلهي. بينما 87 % يعتقدون أنّ التطوّر حدث بدون تدخّل إلهي مباشر في العمليّة.

بالإضافة إلى ذلك، الرّابطة الأمريكيّة لتقدّم العلوم نشرت فيديو على قناتها على اليوتيوب يتحدّث عن التّوافق بين نظريّة التطوّر والأديان،

ويــردّ على الفيلم الوثائقي الأيديولوجي (Expelled) الذي نشره أصحاب فرضيّــة «التّصميــم الذّكي» – الفيديــو يستضيــف العالم الشّهــير فرانسيس كولينــز، المشـرف علـى مشــروع الجينــوم البشــري:

باستطاعتكـم مشاهـدة الفيديو عبر الرابـط التـالي:

https://youtu.be/58UDTq3kaZM[1]

2) 25 مؤسّســة دينيّــة وروحانيّــة عالميّــة تصــرّح بدعمهـا لنظريّــة التطـوّر: فــي العام 2008، نشـر المركز الوطنــي لتعليــم العلوم (NCSE) النّسخــة الثّالثــة مــن كتيّب (Voices for Evolution)، حيــث جمع فيه تصريحــات داعمــة لنظريــة التطـور مــن قبـل قرابة الــ 25 مؤسســة دينيّة وروحانيّــة عالميّــة مختلفــة. هــذه القائمة شملـت تصريحات داعمــة من قبل الكنيســة الكاثوليكيّــة (أو الفاتيــكان)، الكنيســة الأرثوذكسيّــة الشّرقيّــة، المؤتمــر المركــزي للحاخامات الأمريكيين، مركز اللاهــوت (علوم الأديان) والعلــوم الطّبيعيّــة، وغيرها الكثير مــن المراكز والمؤسّســات الدّينيّة الهامّة.

لا بــدّ لنــا أن نستعرض بالــذّات بعض المقتطفـات والاقتباســات من موقــف الكنيســة الكاثوليكيّــة (أكـبر مؤسّســة دينيّة في العالم) مــن نظريّة التطــوّر كدليـلٍ علــى حياديّتهـا فــي مسألــة الدّيــن والإيمــان:

فــي رسالتــه إلى الأكاديميّــة البابويّــة للعلــوم، صــرّح البابــا يوحنّــا بولــس الثّــاني أنّ الحقيقة «لا يمكــن أن تعارض الحقيقــة»، واقتبس موقف البابــا السّابــق (بيوس الثّاني عشر) الــذي يوضّح أنّه ليــس هنالك تعارض بــين نظريّــة التطوّر والعقيــدة الإيمانيّــة المتعلّقــة بالإنسان وهدفــه في هذا الوجــود. وبعدمــا استعرض مــدى القبــول الــذي تحظــى بــه النّظريّــة في

(1) gods-see-scientists-http://ncse.com/rncse/17/6/manyevolution-hand

المؤسّسات العلميّة والأكاديميّة، فرّق البابا بين التّفسيرات الماديّة التي قد تنبني على حقيقة التطوّر وبين الحقائق البحتة التي يحصّلها هذا العلم بآليّاته التّجريبيّة الدّقيقة[1].

3) علماء مسلمون يلمّحون لإمكانيّة تفسير الآيات القرآنيّة بما يتوافق مع نظريّة التطوّر: لقد كتب، تحدّث، وألّف بعض علماء المسلمين حول إمكانيّة التّوفيق بين أصول نظريّة التطوّر المركزيّة وبين الآيات القرآنيّة التي تتحدّث عن خلق الإنسان والكائنات الحيّة عمومًا. أحد أشهر هؤلاء هو الدّكتور عبد الصّبور شاهين في كتابه «أبي آدم» الذي يدّعي أنّ البشر تطوّروا من غيرهم من الكائنات الحيّة – كما تصوّر نظريّة التطوّر -، ولكنّ الله اصطفى آدم من بينهم ونفخ فيه الرّوح ليكون أبا الإنسان. بالإضافة إلى ذلك، الدكتور يوسف القرضاوي، أحد أهمّ العلماء المسلمين وأكثرهم تأثيرًا في العصر الحديث، صرّح في برنامج «بداية الخلق ونظريّة التطوّر» على قناة الجزيرة: «ونحن المسلمين نقف على أرض صلبة ليس عندنا، ليس هناك قضية واحدة تتناقض مع نصوص القرآن أو النصوص القطعية في السنة النبوية ليس هناك، حتى لو ثبتت قضية، نظرية داروين، عندنا من الآيات ما يمكن أن يدخل فيها». وبعد ذلك، نفى الدّكتور القرضاوي وجود أيّ علاقة مباشرة بين الإلحاد ونظريّة التطوّر بقوله: «فليس من ضرورة النظرية الإلحاد، إنما استغلها الملحدون، يعني النظرية في إيحاءاتها للعامة يستغلها الملحدون».

وبعد ذلك صرّح القرضاوي أنّ معارضة علماء المسلمين للنّظريّة ليس لها علاقة بإيحاءاتها الفلسفيّة، إنّما بقبولها العلميّ وبقوّة الأدلّة

---

(1) http://ncse.com/voices

العلميّـة التـي تسـوّق لهـا، حيث قـال: «حينمـا تصبـح النظريـة دي حقيقة واقعـة ممكـن نـؤول يعنـي كما قـال الشيخ عبـد الوهـاب النجار فـي كتابه قصص القـرآن حينما تصبـح القضيـة، نظرية داروين مثـل السماء فوقنا والأرض تحتنـا، يعنـي حقيقـة قطعيـة، نضطـر في الحالـة دي نؤول آيات القـرآن».

ليس الهـدف من هـذه الاقتباسات بيـان موافقتنـا أو معارضتنا لها، ولكنّهـا تشـير بشـكلٍ واضـح إلى أنّ هنالـك إمكانيّـة حقيقيّة للتّوفيق بين نصوص القـرآن والسنّة وبين نظريّـة التطوّر، ممّا يعني أنّ النّظريّـة ليست إلحاديّـة، ولا تدعو إلى «هدم الأخلاق» و«سلـخ القيم» كما يدّعـي معارضو النّظريّـة مـن الخلقيـين[1].

4) بعض العلمـاء المؤمنـين مـن أنصـار فرضيّـة «التّصميم الذّكي» يعترفـون بحقيقـة التطـوّر المركزيّـة (السّلـف المشترك): عـادة ما يعترف الخلقيّـون بأنّ رؤية داروين العلميّة بمـا يتعلّـق بالانتقاء الطّبيعـي للأصلح فـي البيئـة المتغـيّرة صحيحـة، ولكنّهـم يختلفـون معه فيمـا يتعلّـق بالأصل أو السّلـف المشـترك لجميـع الأنواع الحيّة – وهـذا يشمـل الإنسان. ولكن فـي واقـع الأمـر، بعض العلمـاء الذيـن يناصـرون فرضيّـة «التّصميـم الذّكـي» يعترفـون بحقيقـة السّلـف المشـترك أيضـًا. علـى سبيـل المثـال، العـالم الشّهـير مايـكل بيهـي (Michael Behe)، أحد أشهـر المدافعين عـن فرضيّـة «التّصميـم الذّكي» صـرّح في كتبـه الكثيرة أنّه يقبـل بحقيقة التطـوّر المركزيّة «السّلـف المشترك»، حتّى بين الإنسان والقـردة. سنقتبس هنـا بعض المقتطفـات من كتبـه والتي تبـيّن مواقفـه الحقيقيّة مـن مسألة التطـوّر والسّلـف المشـترك:

---

(1) http://www.aljazeera.net/programs/pages/af1ea016-4280-4a0d-838f-8ca05f31c8df

«أنا أجد فكرة السّلف المشترك (أنّ جميع الكائنات الحيّة انحدرت من سلف مشترك) مقنعة تمامًا، وليس لديّ أيّ سبب للتّشكيك فيها. أنا أحترم بشدّة عمل زملائي الذين يدرسون نموّ وسلوك الكائنات الحيّة في إطارها التطوّري، وأنا أرى أنّ علماء التطوّر ساهموا بشكلٍ مذهل لفهمنا للعالم. ومع أنّ آليّة داروين – الانتقاء الطّبيعي يعمل على تنوّع [في الصّفات] – من الممكن أن تفسّر الكثير من الأشياء، ولكنّي لا أؤمن أنّ باستطاعتها تفسير الحياة الجزيئيّة. (مايكل بيهي، صندوق داروين الأسود، صفحة 5 – 6)[1].

«عند البشر وقردة الشامبانزي هنالك نسخة معطّلة من جين يساعد على صناعة فيتامين سي عند الثدييّات الأخرى. من الصّعب أن نتخيّل أن يكون هنالك دليل أقوى من هذا على صحّة السّلف المشترك بين قردة الشامبانزي والبشر. [...] على الرّغم من بقاء بعض الألغاز المحيّرة، إلا أنّه ليس هنالك أيّ سبب للتّشكيك في أنّ داروين أصاب في هذه النّقطة، أنّ جميع الكائنات الحيّة على الأرض هي أقارب بيولوجيّة (مايكل بيهي، حافّة التطوّر، صفحة 71 – 72).

5) علماء مؤمنون مشاهير دافعوا علنًا عن نظريّة التطوّر وصرّحوا بقبولهم لحقائقها المركزيّة: هذه قائمة بأهمّ وأشهر العلماء المؤمنين الذين دافعوا عن نظريّة التطوّر ضدّ الهجمات الأيديولوجيّة التي يمارسها الخلقيّون تجاه النّظريّة العلميّة.

– الدّكتور فرانسيس كولينز (Francis Collins)، المشرف على مشروع الجينوم البشري، ومدير المعهد الوطني للصحّة في أمريكا (الدّيانة: مسيحي إنجيلي).

(1) https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_Behe

– الدّكتور كينيث ميلر (Kenneth Miller)، بروفيسور علم البيولوجيا الجزيئيّة والخلويّة في جامعة براون الأمريكيّة، وأحد أشهر المدافعين عن نظريّة التطوّر في أمريكا. (الدّيانة: مسيحي كاثوليكي).

– الدّكتور فرانشيسكو أيالا (Francisco J. Ayala)، برفيسور علوم الأحياء والتطوّر في جامعة كاليفورنيا إرفاين، وقسّيس دومينيكاني سابق. (الدّيانة: مسيحي).

– الدّكتور سايمون موريس (Simon C.Morris)، عالم الأحياء القديمة والمستحاثّات، ومكتشف أهمّ موقع أحفوريّات في العالم (Burgess Shale). الدّكتور موريس معارض جدًّا للتّفسيرات الماديّة لنظريّة التطوّر ولا يرى تعارض ما بين النّظريّة والإيمان بالخالق (الدّيانة: مسيحي).

– الدّكتور روبرت بيري (R. J. Berry)، مختصّ في علم الوراثة وعالم طبيعة مشهور. (الدّيانة: مسيحي).

خلاصة التقرير :

ولذلك نستنتج من جميع الدّلائل التي استعرضناها في هذه المقالة أنّه ليس هنالك في نظريّة التطوّر العلميّة ما يدعو إلى الإلحاد، هدم الأخلاق، سلخ القيم، أو محاربة الأديان. تفسيرك لحقائق النّظريّة وتفسيرك للحقائق المستقاة من الإيمان الدّيني هو ما يحدّد موقفك العلمي والموضوعي من النّظريّة. أو بمعنى آخر، إذا أردت أن تكون ملحدًا، فستجد في النّظريّة ما تريد أن تجد فيها ابتداءً، وإذا كنت مؤمنًا فستجد في النّظريّة ما تريد أن تجد فيها ابتداءً .

ينتهي التقرير بأن نظريّة التطوّر هي نظريّة علميّة حياديّة تسعى

لفهم، تفسير، وشرح الحقائق المشاهدة في عالم الأحياء. ودعمها وتقبّلها من قبل العلماء المؤمنين والملاحدة على حدّ السّواء لا يؤكّد إلاّ على حياديّتها في مسائل الإيمان والدّين. ولهذا السّبب فإن الهجمات الأيديولوجيّة التي يمارسها الخلقيّون ضدّ النّظريّة هي هجمات غير مبرّرة. ونتمنّى أن تدفعنا هذه المقالة نحو دراسة النّظريّة، أصولها العلميّة، والأدلّة التي تساق في صالحها بشكل علمي وموضوعي، بدلاً من مناقشتها على أنّها دين أو أيديولوجيّة سياسيّة.

أظن أن هذين التقريرين كافيان لأن أتجاهل كلام أستاذ الدين وأن أجيب على تساؤل «لماذا نظرية التطور» وأن أتقدم في الخوض في النظرية ومعالجتها معالجة حتمية إلى ما لانهاية إن شاء الله .

❑ ❑ ❑

لمحة تاريخية عن التطور

كانت الفلسفة في بداية نشوئها وتطورها تبحث في كل شيء وتهتم بكل شيء ومن ضمنها العلوم المختلفة. أي كانت العلوم ساحة من ساحات الاهتمام الشامل للفلسفة. حيث نرى أن المعلم أرسطو يهتم بجميع العلوم المعروفة في عهده بدءاً من الرياضيات وانتهاء بعلوم الأحياء. ونرى أفلاطون - أستاذ أرسطو - يكتب على مدخل مدرسته: «من لا يعرف الرياضيات فلا يدخل هنا» وعندما اتسعت العلوم اتساعاً كبيراً وتشعبت، لم يعد هذا ممكناً ولم يعد في وسع أحد أن يحيط بجميع العلوم إضافة إلى اشتغاله بالفلسفة فانفصلت ساحة العلم عن ساحة الفلسفة تدريجياً وبدأ الإنسان يصبح فضولياً أكثر وأكثر في بحر العلوم ليخطر بباله الانخراط والتعمق بمعرفة تاريخ الأرض والإنسان وبدأ(سؤال كيف ولماذا ومن؟) يطرق مخه من أوسع الأبواب، ولمعرفة تاريخ الأرض ورصد التطورات التي مرت بها وبداية الحياة فيها ونشوء الإنسان عليها تتضافر عدة تخصصات تعمل بالتعاون والتنسيق فيما بينها. ومن أهم التخصصات التي تعنينا هنا هي علم الجيولوجيا وعلم الآثار وعلم الأحافير أو المستحاثات وعلم الجينات وكلها تم لمها وجمعها في علم واحد يسمى الأنثروبولوجيا وبدأ تدريسه في أكبر وأهم جامعات العالم. يستطيع الجيولوجيون وعلماء

الأحافير بالتعاون فيما بينهم أن يقدروا عمر الأرض ويتتبعوا تطور أنماط الحياة عليها عبر الحقب والعصور الجيولوجية وذلك بدراسة طبقات الصخور وما تحتوي عليه من أحافير. كما يدرس علماء الآثار مخلفات الإنسان المادية التي يجدونها مطمورة تحت الأرض لتعينهم في تحديد مراحل تطور الثقافة البشرية.

وبعد اكتشاف «النظرية النسبية» من قبل إنشتاين، و«النظرية الكمية» من قبل ماكس بلانك وهايزنبرغ وغيرهما من العلماء، اضمحلت تلك المدارس الفلسفية وظهرت مدارس فلسفية أخرى حسب المنظور الجديد لكون ذي أبعاد أربعة (بعده الرابع هو الزمن). وتزلزل المبدأ السابق في «الحتمية Determinism» واختلفت النظرة إلى العالم في مقياسه الصغير (أي الذرة) وفي مقياسه الكبير أيضاً (أي الكون). أي أن العلم أصبح يقود الفلسفة ويوجهها. ولا عجب في هذا فما دامت الفلسفة تبحث عن الحقائق الكبرى في هذا الكون وفيما ورائه ، فمن الطبيعي أن تتأثر بالنظريات العلمية التي تساهم في زيادة معرفتنا بهذا الكون وبالقوانين السائدة فيه. وقد تخطئ الفلسفة في تفسير بعض هذه القوانين عند قيامها بتفسير الكون على ضوئها، ولكن العلوم تبقى مع هذا العامل المؤثر الأول في رسم اتجاهات مختلف المدارس الفلسفية، لأن أي مدرسة من هذه المدارس لا تستطيع تجاهل المعطيات العلمية.

ومن هنا تأتي الأهمية الفائقة للنظريات وللقوانين العلمية الحديثة من الناحية الفكرية والفلسفية إضافة إلى أهميتها في التقدم التكنولوجي الذي يساهم في زيادة رفاهية الإنسان وتقدمه في مضمار المدنية.

وكذلك من هنا تأتي أهمية «نظرية التطور» لداروين. ذلك لأنها

أثرت تأثيراً بعيداً في جميع المناحي الفكرية للإنسان... أثرت في الفلسفة، وفي علم الاجتماع وفي علم النفس وحتى السياسة، وقال عنها كارل ماركس: «أن هذه النظرية هي تطبيق فلسفتنا في صراع الطبقات في الطبيعة» مشيراً بذلك إلى فكرة «الانتخاب الطبيعي» في نظرية داروين والتي سنشرحها لاحقاً، فأثر هذه النظرية واضح في العديد من المدارس الفلسفية. فبعد انتشار هذه النظرية وذيوعها نرى أن العديد من الفلاسفة بدؤوا بسحب هذه النظرية من إطارها في عالم الأحياء ليطبقوها على مستوى الكون. لذا نرى تعابير فلسفية جديدة بعد ظهور هذه النظرية وشيوعها مثل «التطور الانبثاقي» Emergent Evolution للفيلسوف البريطاني «لوي مورجان» و«التطور الخلاق» للفيلسوف الفرنسي «هنري برغسون».

والشيء نفسه نلاحظه عند الفيلسوف الأسترالي «صمويل ألكساندر». حيث يقول: «هناك تطور على مستوى الكون، وأن المادة كانت في صورة بسيطة في أول أمرها ثم تطورت إلى مادة لها خواص معينة كاللون والرائحة، ثم ظهرت الحياة وبعدها العقل، وإن الله يمثل المرحلة النهائية للعقل، أي أن الله - تعالى الله علواً كبيراً - ليس إلا نتيجة هذا التطور الذي بدأ منذ الأزل في هذا الكون الذي عدوه قبل عقود من الزمن لانهائياً من ناحية الزمان والمكان». هذا عند طائفة من الفلاسفة المؤمنين بوجود الله.. أما المنطرين والملحدين من الفلاسفة فقد قالوا بالمصادفة. أي أن المادة وهي تتقلب في أدوار وأطوار وحالات مختلفة أنتجت هذا النظام الرائع المشاهد في الكون وفي الحياة.

كما استندت كثير من النظريات السياسية كالنازية والفاشية إلى نظرية التطور مستخدمة إياها كسند علمي لأيديولوجياتها البعيدة عن الإنسانية، فما دامت الحياة صراعاً يبقى فيها الأقوياء ويزول

من مسرحها الضعفاء لذا فمن حق العناصر القوية (كالعنصر الجرماني في النازية وكالرجل الأبيض عند العنصريين البيض) أن تملي إرادتها على العناصر الأخرى وأن تفعل بها ماتشاء إلى حد الإبادة..

كما كانت هذه النظرية خلف ظاهرة الإباحية الأخلاقية أو ما سميت ب «الثورة الجنسية» Sexual Revolution التي اجتاحت العالم الغربي والعديد من بلدان العالم وأخيراً بدأت نتائجها تظهر على بلداننا العربية والإسلامية بشكل عام، وذلك لأن الإنسان ما دام سليل حيوانات فما عليه إلا اتباع غرائزه وعدم كبتها، وما الخلق والضمير إلا قشور زائفة صنعها المجتمع، وهي لا تستحق الالتفات إليها أو الاهتمام بها.

كما ساعد نشاط الثورة الصناعية في أوروبا على نشوء وتطور علوم الجيولوجيا والأحافير والآثار وما صاحبها من أعمال التعدين وشق القنوات ومد الجسور وسكك الحديد وما تجمع لدى العلماء نتيجة ذلك من معلومات عن طبقات الأرض. وللتقدم الذي أحرزته الجيولوجيا مع بداية القرن التاسع عشر أثره المباشر على تطوير أساليب التنقيب. قبل ذلك كان الاعتقاد السائد أن عمر الأرض لا يزيد عن ستة آلاف سنة، وهي المدة التي حددها عام 1650 رئيس الأساقفة الإيرلندي «جيمز أشر» James Ussher الذي أكد بأن خلق الأرض والإنسان حدث منذ 4004 سنة قبل المسيح، وذلك بناء على حسابه لسلسلة الأنساب الطويلة الواردة في سفر التكوين. وجاء بعده رجل دين آخر هو الدكتور «جون لايتفوت» John Lightfoot رئيس كلية القديسة كاثرين St. Catherine's College التابعة لجامعة كامبردج وحدد الموعد بدقة أكثر وقال إنه حدث في الساعة التاسعة

من صباح 23 أكتوبر سنة 4004 قبل الميلاد!! ويلاحظ أن هذا التاريخ هو تاريخ بدء العام دأب النساخ ودور الطبع على إقحامه في حواشي الإنجيل. وفي القرن السابع عشر عثر أحد الهواة ويدعى «إسحاق لابيرير» Isaac de la Peyrere على أدوات حجرية غريبة الصنع في الريف الفرنسي وألف عنها كتاب قال فيه إنها لبشر عاشوا قبل آدم فسارعت الكنيسة بحرق الكتاب سنة 1655. وفي عام 1771 عثر هاوٍ آخر من ألمانيا يدعى «جان فردرك إسبر» Johann Friedrich Esper على عظام بشرية مدفونة مع عظام أجناس منقرضة من الدببة خارج مدينة بيريوث في مقاطعة بافاريا، لكنه لم يعرف كيف يفسر تلك الظاهرة التي تعارضت مع القناعات السائدة من عمر الأرض آنذاك. وفي عام 1797 عثر «جون فرير» John frer في منطقة هكسني في إنجلترا على فؤوس حجرية مع بقايا حيوانات بائدة قال في بحث قرأه أمام الجمعية الملكية في لندن بأنها تعود إلى زمن سحيق يسبق اكتشاف الإنسان للتعدين. وفي عام 1830 عثر «ب. ك. شمرلنغ» P. C. Schmerling في مغارة في بلجيكا على أدوات حجرية وأحافير لحيوانات انقرضت منذ زمن بعيد مثل الماموث والكركدن، إضافة إلى جمجمتين بشريتين.

وهكذا صارت تتجمع الشواهد ولا أحد يجد لها تفسيراً عدا من قال بأنها محاولات خلق قبل آدم صرف الله النظر عنها، أو أنها جاءت نتيجة الطوفان الذي غطى اليابسة أيام النبي نوح، وهذا ما يطلق عليه جيولوجيا الطوفان أو الجوائح Diluvialist/ Cataclysmic/ catastrophic geology. إلا أن هذه الفرضيات لم تكن قادرة على تفسير مايبدو على الحفريات الموجودة في طبقات الأرض المتعاقبة من تغير في البنية وتطور ملحوظ من البدائية في الطبقات السفلى إلى كائنات أكثر تطوراً في الطبقات

العليا. وجاء عالم الطبيعة والجيولوجيا وعضو أكاديمية العلوم الفرنسي البارون «جورج كوفيير» (1769 - 1832) Baron Georges Cuvier ليقول بتعدد الطوفانات وتعاقبها والبدء بخلق جديد أكثر تطوراً بعد الفناء الذي يعقب كل طوفان. ولكن هذا يعني، حسب تقدير الأسقف «جيمز أشر» لعمر الأرض، تعاقب الطوفانات وما يعقبها من خلق جديد بشكل متسارع جداً لا يصدقه العقل، لذا كان لا بد من إضافة بضعة آلاف من السنين إلى عمر الأرض، وهذا هو الرأي الذي سبق أن عبر عنه عالم الطبيعة الفرنسي «الكونت جورج دي بوفون» (1707 - 1778) Comte Georger de Buffon. ووفق منها بداية خلق جديد واستغرق ذلك ما لا يقل عن ثمانين ألف سنة.

وكان من الصعب على كثير من الناس تقبل فكرة أن الإنسان مر عليه وقت كان يحيا فيه حياة بدائية ويعمل أدواته من الحجر، لأن ذلك لم يرد في التوراة والإنجيل. وأول من حاول أن يبرهن على ذلك بطريقة منهجية موظف جمارك فرنسي له اهتمام بالحفريات يدعى «جاك بوشير دي برثي» (1788 - 1868) Jacques Boucher de Perthes الذي جمع كمية كبيرة من العظام والأدوات الحجرية الصوانية التي عثر عليها في منطقة أيفيل في شمال فرنسا أثناء عملية تنظيف قناة «سوم» somme. لاحظ «دي بيرثي» أن الأدوات التي عثر عليها لا بد وأن تكون من صناعة الإنسان وأنها جاءت من مكان غير المكان الذي وجدها فيه لأن مادة الصوان لا توجد في تلك المنطقة. هذا قاده إلى الافتراض بأن عمر الإنسان على هذه الأرض لا بد وأن يكون موغلاً في القدم. وعام 1838 نشر نتائج كشوفاته في خمسة مجلدات تلاها ثلاث مجلدات أخرى عام 1847، لكن أحداً آنذاك لم يعره اهتماماً وتجاهلته حتى المؤسسات والمجامع العلمية الفرنسية.



ومع مرور الوقت بدأت تتضافر جهود الجيولوجيين مع جهود علماء الآثار والأحافير للبرهنة على طول عمر الأرض وعلى قدم الإنسان. ومن الكتب الرائدة التي قرأتها في مجال الجيولوجيا كتاب ظهر عام 1795 عنوانه نظرية الأرض Theory of the Earth ألفه «جيمز هتن» James Hutton (1797 - 1726) والذي يرد به على أصحاب نظرية الطوفان. يقول «هتن»: «إن تراصف طبقات الأرض لا دخل للجوائح فيه أو الطوفانات إنما يعود لأسباب طبيعية يمكن ملاحظتها ودراستها، ولا نزال نلحظ آثارها في البحار والأنهار والبحيرات وتكون الجبال وقال بأن التغيرات المسؤولة عن تشكيل الأرض وما عليها من مخلوقات تمت بطريقة بطيئة ومتدرجة ومتصلة وليس على شكل قفزات متقطعة كما يفترض أصحاب نظرية الطوفان». وبذلك وضع هذا الكتاب الأساس الذي

قدمت عليه أحد أهم النظريات العلمية في مجال الجيولوجيا وهي نظرية قدم الأرض وانتظام طبقاتها وتتابعها واطراد تراصفها. وبعد ذلك جاء المهندس «وليم سمث» (1769 - 1839) William Smith ليؤكد بما لا يدع مجالا للشك بأن الطبقات السفلى عادة أقدم من العليا وأنه بالإمكان مضاهات الطبقات وتحديد عمرها النسبي بمقارنة ما تحتويه من أحافير لأن هناك توافق بين عمر الطبقات وما تحويه من أحافير ويسمى هذا نظام التراصف. ولقد تم تنسيق جميع المعلومات الجيولوجية المتوفرة آنذاك على يد «السير تشالز لايل» (1797 - 1875) Sir Charles lyell الذي وضع مبدأ انتظام تراصف الطبقات في كتابه مبادئ الجيولوجيا Principles of Geology، وهو من الكتب التي قرأها «تشارلز داروين» (1809 - 1882) Charles Robert Darwin وتأثر بها وكان له أثر في تهيئة المناخ العلمي للاقتناع بأن الإنسان موغل في القدم وفي تقبل نظرية التطور التي نشرها داروين عام 1859 في كتابه الشهير «أصل الأنواع بواسطة الانتخاب الطبيعي» On the Origin of Species وذلك مستفيداً من ظهور وتطور علم الإنسان والأرض حيث حينما نشأ هذا العلم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على أيدي الرواد الأوائل من أمثال «لويس هنري مورغن» (1818 - 1881) Lewis Henry Morgan و«هربرت سبنسر» (1820 - 1903) Herbert spencer و«إدوارد برنت تايلر» (1832 - 1917) Edward BurnetTylor وغيرهم كانت نظرية التطور هي النظرية المسيطرة على الأجواء الفكرية والعلمية في الغرب. وفكرة تطور المجتمع البشري وثقافة الإنسان من الأفكار البديهية التي استقرت في الأذهان منذ أقدم الأزمان، من أفلاطون إلى ابن خلدون حتى فلاسفة التنوير ومن بعدهم فلاسفة النهضة الأوروبية، وإن تباينت

الآراء حول الكيفية والمراحل التي مر بها الإنسان خلال مسيرته التطورية ثقافياً وبيولوجياً،، ثقافياً من مرحلة الوحشية والبدائية التي تعتمد على الصيد والجمع والالتقاط مروراً بمرحلة تدجين النبات واستئناس الحيوان القائمة على حياة الاستقرار في قرى ومستوطنات زراعية، وأخيراً مرحلة المدنية والسلطة السياسية المركزية، بما يصاحب ذلك من تخصص مهني وتقسيم العمل والطبقية الاجتماعية، وبيولوجياً جينياً عن طريق كيف يمكن لجسم الإنسان أن يتأقلم من كل هذه التغيرات التي طرأت على الأرض دون تطور في بنيته أو فيزيائيته..



نظرية التطور

نطلق صفة التطور أو التكامل على كل اتجاه من البسيط إلى المركب، ومن الفوضى إلى النظام، وقد تم إطلاق اسم «الداروينية» أولًا على النظرية التي كانت تبحث عن منشأ وتكوين الأحياء.

ثم أطلق عليها اسم «التطور» وهي كلمة لاتينية الأصل تعني شيئاً أو جسماً له طبقات متعددة، وتنفتح كل طبقة بشكل متعاقب الواحدة منها إثر الأخرى، وفتح أستاره للنفوذ إلى داخله.

وفي الاستعمال اليومي لكلمة «التطور» نلاحظ أنه علاوة على ضمها لمعاني التكامل التدريجي والارتقاء والنضج، فهي لا تشير فقط إلى الداروينية، بل تستعمل أيضاً للتعبير عن التغيرات الحاصلة في الأحياء نتيجة للطفرات والتغيرات والاستحالات.

أي أننا نعني بالتطور جميع الأفكار والطروحات الداروينية القديمة منها والحديثة.

ويقال أنه كان هناك من طرح ادعاءات مشابهة لهذا قبل داروين، منهم «كانط» و«باكون» و«هيجل» على حسب رأي البعض.

صراحة إن نظرية التطور لا يمكن حصرها بـ «داروين» ولا بـ «مارك». فهي من جهة أقدم منهما وطرحت قبلهما بعدة عصور ولكن بأساليب مختلفة، ومن جهة أخرى هناك أنصار لـ «الداروينية الحديثة» في

عصرنا حيث طرحوا نظريات جديدة في تأييد وتقوية نظرية داروين ولو لم يكن أمر القضاء على هذه النظرية هو أشبه بأخطر كوارث الحياة التي يتعرضونها فما كانوا بدؤوا في السنوات الأخيرة من فتح مجالات تدريس خاصة بهذا العلم في أحسن جامعات العالم متناسين أي براهين جينية أو روحية قائمة على نفيها.

- **العوامل التي ساقت داروين لطرح نظريته:**

يمكنني ذكر ثلاثة عوامل ساقت داروين لطرح نظريته المعروفة.

- **الأول:** هو قيام القس الإنكليزي «مالتوس» بنشر رسالته في إنكلترة في عهد كان فيه الفقر سائداً. كان «مالتوس» يرى أن زيادة السكان يُعد عاملًا من عوامل الفقر، وكان يعارض القانون الحكومي الذي كان يقضي بقيام الحكومة بمساعدة الفقراء من خزينة الدولة. وقام بنشر كتابه (تجربة حول السكان) عام 1798م ذكر فيه أن السكان على سطح الأرض يتزايدون بنسبة هندسية، بينما لا تتزايد مصادر الغذاء إلا بنسبة عددية، وذلك بسبب محدودية الأراضي القابلة للزراعة وأنه لولا وقوع أنواع عديدة من الكوارث الطبيعية كالسيول والآفاق والأمراض المعدية لما كان بالإمكان توفير الغذاء للسكان المتزايدين. وكان «مالتوس» يدعو الحكومة حسب فكرته هذه إلى إلغاء مساعدة الفقراء. أما داروين فقد استخرج من نظرية مالتوس - التي قدمت لغاية اقتصادية صرفة - نتائج علمية، حيث استند إليها في وضع نظريته في «الانتخاب الطبيعي» كما سنرى فيما بعد.

- **والعامل المؤثر الثاني:** هو كتاب (حول القانون) الذي ينظم ظهور الأنواع الجديدة لمؤلفه «ألفريد رسل والاس» والذي كان يقوم بأبحاثه في شواطئ أميركا الجنوبية وجزر ملايا في المحيط

الأطلسي. وفي الرسالة الطويلة جداً - والتي كانت بمثابة كتاب - التي بعثها والاس إلى داروين أشار إلى أن المخلوقات التي تبدي تكيفاً مع بيئتها هي التي تستطيع إدامة حياتها، أي كان يشير إلى وجود صراع بين الأحياء في الطبيعة. وعندما طرح داروين نظريته المعروفة كان يستند إلى مثل هذه الطروحات.

أما العامل الثالث: فهو بعض العلماء السابقين الذين تناولوا هذا الموضوع وذكروا حوله آراءهم و منهم «لامارك» الذي كان يقال عنه إنه كان شخصاً بسيطاً وكحاطب ليل يجمع بعض المسائل بسرعة ودون تمحيص وبشكل لا يليق بحرمة العلم بينما يقال أن داروين كان يجمع الآراء والأفكار من مختلف المصادر ويرتبها بشكل أكثر حيوية وأكثر قرباً من الطريقة العلمية.

يتحدث داروين في نظرية التطور عن تطور الحياة: أن الحياة نشأت في البحار ثم انتقلت تدريجياً من الماء إلى اليابسة، وكان لا بد للحيوانات والنباتات أن تواجه مشكلة التكيف مع هذا المحيط الجديد. فمن المشاكل التي واجهتها النباتات البرية مشكلة التغلب على الجفاف ونقل الماء والغذاء إلى أغصانها وأوراقها فنشأت لها أنابيب شعيرية تفي بهذا الغرض، كما نشأت لها جذور تضرب في أعماق التربة بحثاً عن الماء والغذاء ولتثبيتها في الأرض وإسنادها. أما بالنسبة للحيوانات فقد واجهتها مشاكل من نوع آخر أهمها مشكلة التنفس والتكاثر والحركة وإسناد الجسم على القوائم، كما أن ظروف المناخ وتوفر الطعام على اليابسة غير ثابتة وتتغير بتغير الفصول. لذا فقد مر انتقال الحيوانات من الماء إلى اليابسة بعدة مراحل ابتداء بالأسماك الرئوية مروراً بالحيوانات البرمائية ثم إلى الزواحف. بالنسبة للأسماك التي تعيش

في قاع البحر فإنها لا تتعرض لتقلبات الجو والتغيرات المناخية الناتجة عن تعاقب الفصول، حيث أن درجة الحرارة في عمق المحيط تكاد تكون معتدلة وثابتة طوال العام، لذا فإن انتقال الحياة من الماء إلى اليابسة يتطلب منها أن ينشأ لها وسيلة تساعدها على الاحتفاظ بالاتزان الجسمي بين عناصره المختلفة وتحافظ على بيئتها الداخلية بحيث تقارب إلى حد ما البيئة المائية التي انحدرت منها. ومن وسائل الاحتفاظ بالاتزان الجسمي الجوع والعطش وسرعة التنفس في حالة الاختناق ومنه العرق في حالة الحر (للتبريد) وميل الجلد إلى السواد في المناطق الحارة (لمنع نفوذ الأشعة فوق البنفسجية). كما أن الحيوانات البرية نشأ لها طبلة الأذن التي تساعدها على سماع الأصوات المحمولة في الهواء. كذلك لا بد من نشوء رموش لحماية العين ودموع لترطيبها وكذلك القدرة على الرؤية في الهواء.

ولا تستطيع السمكة العيش خارج الماء كما لا يستطيع أي حيوان بري العيش مغموراً بالماء. وتحصل الأسماك، لاسيما الأنواع الصغيرة البدائية، على الأوكسجين من الماء عن طريق مسام الجلد وكذلك بواسطة الخياشيم. وقد ظهر في المرحلة الانتقالية نوع خاص من السمك يسمى السمك الرئوي أي بإمكانه الحصول على الأوكسجين من الماء بواسطة الخياشيم إضافة إلى رئة بدائية تمكنه من تنفس الهواء، وكانت هذه الرئة في الأصل كيساً هوائياً يساعده في الطفو على سطح الماء. وظهر هذا النوع من السمك تجاوباً مع التغيرات المناخية التي حدثت في العصور الجيولوجية القديمة لتعيش في البرك والمستنقعات التي تتراوح بين الرطوبة والجفاف. فإذا ما جف الماء عن هذه الأسماك تنفست الهواء حتى تجد الماء. ولكن لا يكفي لهذه الأسماك لكي تعيش

على اليابسة أن تتنفس الأوكسجين، فطريقة الحركة والانتقال تختلف على اليابسة عنها في الماء. الحيوانات المائية تطفو أجسامها ولا تحتاج إلا إلى جهد بسيط من أجل الحركة. أما الحيوان البري فلا بد أن يحمل جسمه بكامل ثقله، كما أن بقية الهيكل العظمي لا بد أن يتكيف مع الحياة على اليابسة ليصبح العمود الفقري صلباً يلتحم بالزنار الحوضي الذي تلتحم به القوائم الخلفية. لذا كان لا بد لزعانف السمك الرئوي التي تستخدمها للتجديف في الماء أن تتحول إلى قوائم رافهة تتناسب مع الحركة على اليابسة حتى إذا جف عنها الماء تستطيع الزحف والانتقال إلى مستنقع آخر. وهكذا تطور السمك الرئوي إلى حيوان برمائي له قوائم بدائية ورئة بدائية. ومن المفارقات أن هذه الأرجل والرئة البدائية جاءت أصلاً لتساعد هذه الأسماك على الاستمرار في عيشتها المائية في أزمان الجفاف كما رأيناه لكنها في نهاية الأمر مهدت الطريق لها لتتحول إلى حياة برية لا صلة لها بالماء.

الحيوانات البرمائية تستطيع أن تتنفس الهواء ولها القدرة على الحركة على اليابسة، لكنها لا تستطيع أن تقطع صلتها بالماء وتحيا حياة برية كاملة. فلا بد للأنثى أن تضع بيضها في الماء أو قريباً منه وفي معظم الحالات يلقح الذكر البيضة تلقيحاً خارجياً بعد أن تضعها الأم. واذاماتعرضت البيضة للهواء جفت وفسدت لأنها تفتقر إلى قشر يحميها. وتصبح البيضة يرقة ثم فرخاً يعيش مرحلة حياته الأولى في الماء مثل الأسماك تماماً ويتنفس الماء بخياشيمه، ولربما يعود ذلك إلى توفر الغذاء المناسب لهذه المرحلة من حياة البرمائيات في الماء بدل اليابسة. وبعد أن تنتهي المرحلة اليرقية تبدأ عمليات التحول التي عن طريقها يبدأ جسم الحيوان وطريقة حياته في التغير، فتختفي الخياشيم والذنب وتستبدل بالأرجل والرئتين وينتقل إلى البر ولا يعود إلى الماء إلا

ليضع بيضه.

وهكذا على مدى ملايين السنين تطورت الحياة من خلايا بسيطة التركيب إلى كائنات في غاية التعقيد وانقسمت في فترة مبكرة إلى مملكتين: نباتية وحيوانية. تتميز النباتات بقدرتها على التركيب الضوئي، أي امتصاص الطاقة من أشعة الشمس لتصنيع مركبات عضوية من مركبات كيميائية غير عضوية، بينما تتميز الحيوانات بقدرتها على الحركة والهضم والتنفس. والمملكة سواء الحيوانية أو النباتية تنقسم بدورها إلى شُعب وكل شعبة تنقسم إلى فصائل وكل فصيلة إلى رُتب والرتبة إلى طوائف والطائفة إلى أصناف والصنف إلى أنواع والنوع إلى أجناس. وأول من فكر في النظام المتبع الآن في تصنيف الحيوانات والنباتات هو عالم النبات السويدي «كارلس ليناوس» (1707 - 1778) فقد وضع هذا العالم الخطوط العريضة التي لا تزال مستخدمة حتى الآن. ولقد استطاع ليناوس دون أن يقصد إلى ذلك، أن يقدم بتصنيفه هذا دليلًا قوياً على صحة نظرية التطور التي أتى بها داروين بعد وفاة ليناوس بأكثر من ثمانين سنة. وغرض ليناوس من التصنيف كان هو إيضاح علاقة القرابة البيولوجية أو البعد بين الكائنات الحية من حيث بنية الأعضاء ووظيفتها. إلا أنه اتضح فيما بعد بالنسبة للداروينيين أن هذه العلاقة ذات دلالة مهمة بالنسبة لتطور الكائنات الحية. فبمقدار ما هنالك شبه بين الكائنات الحية في الهيكل العظمي وبنية الأعضاء يكون قربها أو بعدها من بعضها على سلم التطور، فالكائنات الحية التي بينها تشابه واضح تكون انحدرت من أصل واحد. وهنالك نوعان من التشابه على حسب ما تذكره النظرية، هما التناظر والتماثل. فالتناظر هو التشابه السطحي الذي لا يعني شيئاً كما تتشابه الأعضاء في وظيفتها

أو فـي شكلهـا الظاهـري مثل جناح الطـير والخفاش والحشـرة، فكلها تبدو أجنحـة يستعـان بها في الطيران إلا أنها من الناحيـة التشريحيـة والبنيوية تختلـف تمامـاً ولا تـدل علـى صلـة نسـب بيولوجيـة. بينما أجنحـة الخفاش وقوائـم القوارض الأماميـة بالرغـم مـن اختلافهـا فـي الوظيفـة والمظهر الخارجـي فإنهـا تتشابـه تمامـاً فـي بنيتها فهـذا النوع مـن التشابـه يسمى تماثـل وهـو دليل قاطـع على صلـة النسـب البيولوجـي التي تربـط الخفاش بالقوارض، فكلاهمـا انحـدر مـن أصـل واحـد.

ويعـترف التطوريـون اليوم بـأن عمليـة التصنيف هـذه ليسـت سهلة، فهنـاك مثلاً أنواع مثـل البكتيريا لا تنتمي لا إلى عالم الحيوان ولا إلى عالم النبات. كما أن هناك من الحيوانات ما له مجموعة مـن الخصائص بعضها يشاركـه فيـه هذا الصنف مـن الحيوانـات وبعضها يشاركه فيـه صنف آخر فـلأي الصنفيـن ينتمـي هـذا الحيـوان؟ وهنالك حالات غـير قليلـة اختلف فيهـا المختصـون. فـلا بـد أن يختار المصنـف أهـم الخصائـص التي تميز الحيـوان ويصنفـه تبعـاً لذلك. فالحـوت بالرغم من أنـه يعيش في الماء بين الأسمـاك وله زعانـف وليس له فرو إلا أنـه يصنف مع الثدييات لأنـه يمتلك طبقـة دهنيـة عازلة تحـت الجلد تساعـده علـى الاحتفاظ بحـرارة جسمه، عـلاوة علـى كونه يلـد ويرضع مـن ذوات الدم الحـار. وكذلـك البلاتبوس وهـو حيـوان يعيش في أستراليا لـه منقـار كمنقار البطـة ويبيض كالزاحف إلا أنـه يصنـف مـن الثدييات لأنـه مثلها لـه فرو ويرضـع صغـاره وهذا ما سأتوسـع بشرحـه فـي قسـم معالجـة التطـور فـي الصفحـات القادمـة.

وبهـذا تكـون نظرية التطور قد أنهـت مرحلة الأسمـاك وكيفية قفزها إلى اليابسـة وطبعـاً كل ما ذكرته هو عبارة عـن مقتطفات من النظرية وإلا لـو أردت التوسـع والتدقيـق فيهـا فلظهـر عندنـا مئـات الصفحـات.. وبعد

أن خرجت السمكة من البحر لتحط على اليابسة وتتأقلم معها ظهرت الزواحف ومن الزواحف انحدرت الطيور وبالتحديد من الزواحف التي تمشي على قائمتين فهي قريبة الصلة ببعض أنواع الديناصورات. وكان لهذه الأنواع الأولى أسنان في المنقار. وقد يعتقد البعض أن الخاصية التي تميز الطيور عن غيرها هي القدرة على الطيران. لكن هناك أنواع من الطيور لا تطير مثل البطريق وهناك الكثير من الحشرات التي تطير لكنها لا تعتبر طيور. إن أهم ميزة تنفرد بها الطيور هي الريش الذي يغطي جسمها والذي تطور من حراشف الزواحف الذي بدوره تطور من حراشف السمك. فالطيور تختلف عن الزواحف بريشها وبدمها الحار، وهي بذلك تشترك مع الثدييات إلا أن الثدييات لها شعر بدل الريش.

ويعتقد أن الطيران كخطوة تالية تطلبت بالإضافة إلى الريش إدخال بعض التعديلات على بنية الجناحين والذيل لحفظ التوازن. ثم بدأت بعض هذه الزواحف تعيش في الأشجار وتقفز من غصن لآخر. وشيئاً فشيئاً بدأت تتغير أرجلها الأمامية لتساعدها في الطيران وبعد ذلك تحولت إلى أجنحة. أما بالنسبة للخفاش فإنه حقق القدرة على الطيران على حساب القدرة على المشي، لذا فالخفاش لا يستطيع الوقوف أو المشي وإذا كان لا يطير فإنه يتعلق بأرجله بوضع مشقلب.

وتتابع النظرية وتتحدث عن أنه انحدرت أيضاً من الزواحف فصيلة الثدييات التي تنتمي إليها رتبة الرئيسيات والتي ينتمي إليها الصنف البشري. وتعتقد النظرية أنه من المحتمل أن أسلاف الثدييات الأولى تشبه الأصناف البدائية التي لا يزال منها على قيد الوجود آكل النمل والبلاتبوس وهذه تسمى أحادية المسلك لأن أعضاءها التناسلية والبولية والهضمية لها مسلك واحد أي مخرج واحد.

ومن خصائص الثدييات الأخرى أن لها جهاز هضمي متطور ولها

قلب بأربعة تجويفات ودورة دموية ممتازة لنقل الغذاء والدم الغني بالأوكسجين بكفاءة عالية إلى خلايا الجسم التي تنتج الطاقة والحرارة الضروريتين. ونرى أيضاً أنه من خصائص الثدييات هذه ما يسمى الاقتصاد في التكاثر. فهي على خلاف الأسماك التي تبيض بالملايين والزواحف التي تضع كل عام بيضاً كثيراً ولا ينجو منه إلا القليل، لا تلد عادة إلا جنيناً واحداً على فترات متباعدة. وتحمل جنينها في الرحم وتلده بعد ما يصل إلى مرحلة متقدمة من النمو وترضعه الحليب من ثديها وتستغرق رعايته وتدريبه فترة طويلة بعد الولادة قبل أن يصبح قادراً على الاعتماد على نفسه ويتعلم كل ما يحتاجه للبقاء على قيد الحياة. وهذه الأنواع من الثدييات ندعوها بالرئيسيات.

ينتمي الإنسان إلى رتبة الرئيسيات، لذا يولي الأنثروبولوجيون اهتماماً بالغاً بهذه الرتبة أملاً منهم أن تلقي أبحاثهم في هذا المجال ضوءاً كاشفاً على أصل الإنسان وأسلافه الأولى ومراحل التطور التي مر بها والصلات التي تربطه بمختلف أجناس الرئيسيات.

تقول الدراسات الأنثروبولوجية أن الرئيسيات انحدرت من فصيلة الثدييات مع بداية الباليوسين، أول عصر من عصور حقبة الحياة الحديثة، أي منذ حوالي 70 مليون سنة، في وقت كان فيه المناخ دافئاً والأمطار غزيرة وكانت الغابات الكثيفة تسود معظم سطح الأرض وتمتد عن خط الاستواء شمالًا وجنوباً لمساحات شاسعة تفوق ما هي عليه الآن كثيراً. نعثر من تلك الفترة على أحافير لثدييات بدائية صغيرة تعيش في الغابات قريبة من حجمها وشكلها من القوارض لها ذيل طويل وخمسة أصابع تنتهي بمخالب بدلًا من الأظافر تدب على أربع وتقفز بين الأشجار بحثاً عن البراعم والثمار والبذور وبيض الطيور الصغيرة والديدان والحشرات التي تتغذى عليها. وفي مستهل الأيوسين، ثاني عصور الحقبة الحديثة،

انحدرت عن تلك الثدييات الصغيرة التي تتغذى على الحشرات أنواع أخرى من الحيوانات مثل القوارض والقواضم والرئيسيات البدائية. أما الثدييات البدائية التي انحدرت منها الرئيسيات والقوارض فإن دورها بدأ يتقلص منذ بدأت هذه الأصناف الجديدة تزاحمها وانقرضت أخيراً ولم يبق منها إلا أصناف قليلة مثل القنافذ.

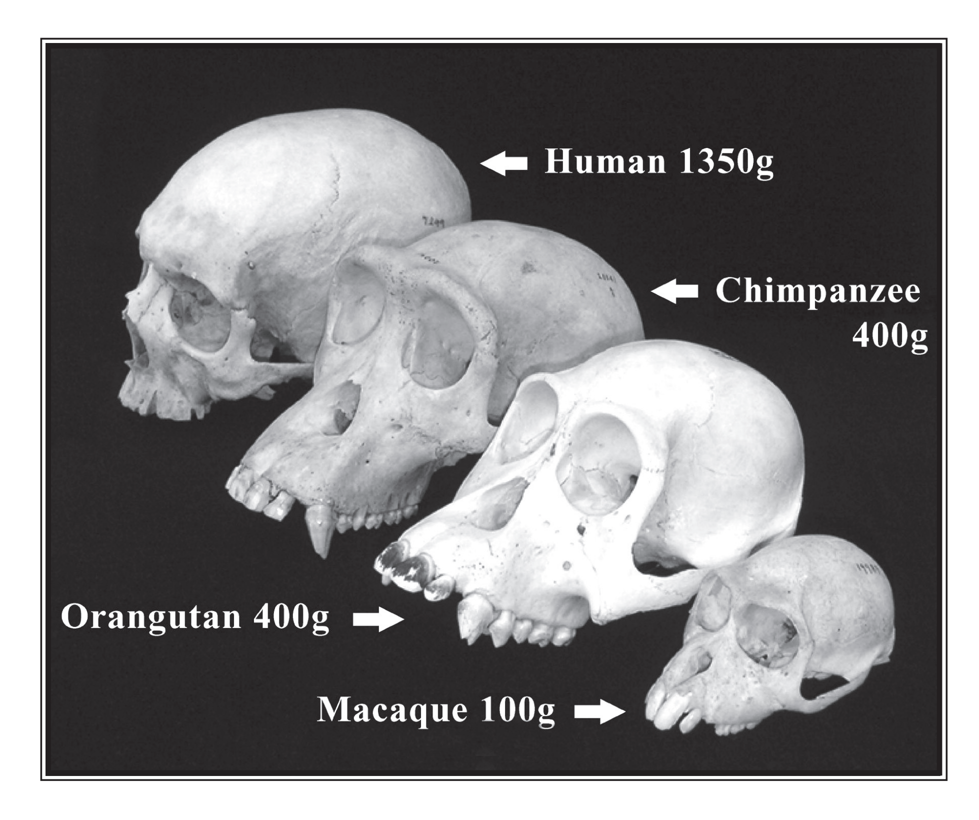
ويكمل التطوريون بأن حياة الأشجار فرضت على الرئيسيات أن تطور السمات القديمة التي ورثتها من أسلافها البدائية لتجعلها أقدر على البقاء والعيش في بيئتها الجديدة، ونتجت عن ذلك عدة تغيرات تشريحية هامة في هيكل الجسم والأطراف لتتناسب مع طريقتها الجديدة في الحركة والتنقل والتي تتطلب منها تسلق الأشجار صعوداً ونزولاً والتشبث بالفروع والأغصان والوثب من غصن إلى آخر بواسطة القبض والإمساك بدلاً من غرز المخالب في الجذوع. وهكذا تحولت قامتها من وضع أفقي إلى وضع رأسي وبدأت آثار ذلك تظهر تدريجياً على شكل العمود الفقري والقفص الصدري. وحدثت تغيرات على الكتفين لتجعلها أكثر قوة وتحملًا للشد حينما يتعلق الحيوان في الأغصان، فنشأت الترقوة التي لا توجد إلا عند الرئيسيات لتكون بمثابة دعامة ورافعة وفي نفس الوقت تمكن الذراع من الحركة في مختلف الاتجاهات، وبدأ لوح الكتف ينزاح إلى الخلف بدل الجانبين. واستطالت الأطراف الخلفية فأصبحت أكثر قوة حتى تستطيع تحمل ثقل الجسم المنصب عليها الآن . وبدأ مركز الثقل في الجسم ينزاح نحو الخلف وأصبح وضع الجسم يميل نحو الانتصاب.

يمكننا القول باختصار إن الرئيسيات كلها تظهر عليها بشكل أو بآخر، فيما يتعلق بهيكلها وبنيتها وسلوكها، علامات التكيف مع حياة الغابة وتسلق الأشجار، حتى تلك التي تمضي معظم وقتها على الأرض لا تزال

تنام في فروع الأشجار وتلوذ بها كل ما أحست بالخطر أو هاجمها عدو.

وهكذا أكمل التطوريون حكايتهم عن العصور وتطور المخلوقات شيئاً فشيئاً إلى أن وصلوا إلى نهاية عصر اليوسين وبداية عصر الأوليجوسين، أي منذ ما يزيد عن 30 مليون سنة، حيث ظهرت القردة! والتي تمثل مرحلة متقدمة على طلائع القردة في تكيفها للعيش على الأشجار، خاصة في ما يتعلق ببنية الدماغ والأطراف. فيقول علماء الأنثروبولوجيا أنه حينما نتفحص دماغ القردة نجد أن منطقة الشم قد تقلصت جداً وتبعاً لذلك فإن خيشوم القردة أقصر من خيشوم طلائع القردة، وتميل وجوهها نحو التدوير والتسطيح، كما أن أنفها غير لزج لأن حاسة اللمس انتقلت من الأنف إلى راحة اليد. وبما أن حاسة الشم فقدت أهميتها لدى القردة لا نجدها تمشي مطأطئة الرأس تتشمم الأشياء في طريقها ولكنها ترفع رؤوسها إلى الأعلى لتسترف ما حولها وتستفيد من حاسة الإبصار القوية لديها. وعيشة الأشجار تحتم على القردة أن تمتلك حاسة إبصار قوية لها القدرة على الرؤية المجسمة وتقدير المسافات لتستطيع القفز والتنقل بين الأغصان بسلام. ولأن غالبية القردة تتغذى على الفواكه التي تختلف ألوانها باختلاف أجناسها ودرجة نضجها أصبحت تتمتع بالقدرة على تمييز الألوان حتى تستطيع التعرف على الطعام المناسب والفواكه الناضجة. والبصر الحاد واليد القابضة مكنتا القرد من فحص الأشياء والتعرف عليها لا عن طريق الانكفاء عليها وشمها ولكن عن طريق القبض عليها ورفعها إلى أعلى أمام الوجه والعينين للنظر إليها وتفحصها بدقة. وتعدد الغذاء وتغيره نتج عنه تغير في شكل الأسنان. كما أن زيادة حجم الدماغ أدت إلى زيادة حجم الجمجمة وميلها نحو الاستدارة. وأهم التطورات التي حدثت في دماغ القردة تتعلق بالمخ على حسب ما يذكره التطوريون، أي مراكز الدماغ العليا التي لا تتحكم بنشاطات الأعضاء

والعمليات الحيوية داخل الجسم وإنما تتحكم بالأعصاب والحواس والذاكرة والبراعة في حركات اليدين والأطراف والتنسيق العصبي والعضلي بينها وبين الأجهزة الحسية وخصوصاً العينين. فهذا الدماغ بحجمه الكبير نسبياً وتركيبه المعقد بعض الشيء منح القرد قدرة أكبر على ملاحظة الأشياء وتمييزها وكذلك اختزان بعض المعلومات لتذكرها واسترجاعها عند الحاجة وتعلم بعض أنماط السلوك التكيفي الجديد التي تساعده على التأقلم مع البيئة الطبيعية والاجتماعية التي يعيش فيها وهذا ما ندعوه بمرحلة البشريات.



هناك موقع يسمى تانغ غرب جوهانسبرج وشمال بلدة تاون في منطقة بوتسوانا الحدودية كان يستخدم لقلع الأحجار الجيرية حينما

نشطت حركة البناء والتعمير في جنوب أفريقيا. وفي سنة 1924 حصل «ريموند دارت»، أستاذ علم التشريح في جامعة ويتواتيرسراند في جوهانسبرج، من ذلك الموقع على كتلة من الصخر تحتوي على بقايا جمجمة وأسنان. وظل «دارت» يعمل بمنتهى الصبر والجهد لمدة ثلاث سنوات حتى تمكن من اقتلاع الجمجمة من الصخر دون تهشيمها. وبعد عدة سنوات أخرى من الجهد الجهيد استطاع أن يفصل فكي الجمجمة ويتفحص الأسنان من الداخل. وكان قد نشر بعد أربعة أشهر من تاريخ هذا الاكتشاف لأول مرة وبالتحديد في 7 فبراير من عام 1925 تقريراً من مجلة «الطبيعة» ذكر فيه أن أحفورة تونغ من الناحية التشريحيَّة مزيج من خصائص البشر وخصائص السعادين، وأطلق عليها اسم «استرالوبثكس أفركانس». والحفرية عبارة عن الجمجمة والفكين وأسنان اللبن والطواحن الأولى المستديمة التي كانت قد بدأت في الظهور، إضافة إلى سبيكة الدماغ التي تشكلت طبيعياً من الحجز الجيري الذي تسرب إلى داخل الجمجمة وتحجر متخذاً شكل الدماغ. وقد لاحظ «دارت» أن الدماغ على الرغم من صغر حجمه نسبياً، تختلف تشكيلته عن دماغ السعادين والجبهة بارزة بعض الشيء والحواجب خفيفة البروز وقحف الدماغ يميل نحو التدوير، والثقب الكبير يقع موقعاً متوسطاً في قاعدة الجمجمة مما يشير إلى انتصاب القامة والتنقل على القدمين. وأسنانه وإن كانت أكبر من أسنان الإنسان إلا أنها مثلها متراصة وتشبهها في الشكل وفي طريق الغرز المتعامدة مع اللثة، بدلاً من البروز إلى الأمام. وهذا يجعل أفركانس قريب الشبه بالإنسان ومختلفاً عن السعادين التي تتميز بأنيابها الكبيرة وبوجود فجوة كبيرة بين الناب والطواحن، وأضراس أفركانس كان سطحها الماضغ متآكلًا مما يدل على المضغ القوي بالطريقة المحورية كالإنسان. والقنطرة المثبتة عليها الأسنان

تشكل نصف دائرة كالإنسان وبخلاف السعادين حيث تشكل القنطرة مستطيلًا أو حرف يو. كل هذه المزايا جعلت «دارت» يؤكد أن أفركانس يمثل مرحلة انتقالية بين السعادين والإنسان.

ولابد من التنويه هنا على أن هذه الفروق التشريحية بين الإنسان والقرد لا تبدأ في الظهور بشكل واضح إلا في سن متأخرة. وبما أن الحفرية التي عثر عليها «دارت» بقايا طفل صغير لم يتجاوز السابعة من عمره فإن الكثير من العلماء شكوا في صحة استنتاجاته، لا سيما أن الحفرية تعود إلى عصر سحيق يسبق العصر الذي كان العلماء يعتقدون أن البشريات ظهرت فيه بمئات الآلاف من السنين وأن حجم الأسنان أكبر وحجم الدماغ أصغر بكثير مما هو متوقع لأسلاف البشر.



أما بالنسبة للمناخ فإن رأي التطوريين كان أنه خلال عهد الترشياري الذي امتد حوالي سبعين مليون سنة ومنذ بدايات عصر الباليوسين كان مناخ الأرض بشكل عام مستقراً يتميز بالدفء والجفاف. إلا أنه ربما حدث ميل نحو البرودة في المناطق الشمالية حدا بالرئيسيات إلى الانحدار من هناك باتجاه الجنوب. وبدأت البرودة تزداد في عصر المايوسين الذي شهد ظهور حركات عنيفة في القشرة الأرضية نتج عنها ظهور مرتفعات وجبال وأصبحت بعض قيعان البحار جزءاً من اليابسة. ثم جاء عصر

البلايستوسين الذي اتسم بالبرودة في البداية ثم صار المناخ يراوح بين فترات طويلة من البرودة، أو ما يسمى بالزحف الجليدي، تليها فترات طويلة من الدفء قد تمتد الواحدة منها لعشرات الآلاف من السنين. أما بالنسبة لإفريقيا فإن عصر البايستوسين تميز بالمراوحة بين فترات مطيرة تعقبها فترات يقل فيها المطر، مما أدى إلى تقلص الغابات وتحول معظمها إلى مناطق سفانا مفتوحة. وبطبيعة الحال، كان لذلك تأثيره الواضح على المناخ وعلى نسبة الأمطار والغطاء النباتي والحيواني في مختلف مناطق الأرض وأثره أيضاً على تطور الحياة وظهور أنواع جديدة وبشكل متسارع من الحيوانات والنباتات قادرة على التكيف في ظل هذا التقلب المناخي. وحيث أن كل مناخ يتميز بغطاء نباتي وحيواني متداخل ومتكامل فإن العلماء يستطيعون عن طريق تحليل التربة في أي طبقة من الطبقات الأرضية وما تحتويه من مستحاثات نباتية وحيوانية أن يعرفوا في أي فترة من الفترات الجيولوجية تكونت تلك الطبقة كما يستطيعون معرفة ما إذا كانت الأحافير التي يعثرون عليها متعاصرة أم أن شيئاً منها جاء مقحماً نتيجة ما تتعرض له القشرة الأرضية من اضطرابات تحدث جراء الاهتزازات والانكسارات وأعمال النحت والتعرية وغيرها. فمنذ حوالي ثلاثة ملايين ونصف المليون سنة مثلاً أي مع نهاية عصر البلايوسين وبداية عصر البلايستوسين وخلال فترة الزحف الجليدي المسمى فيلافرانشين، حدثت تحركات قارية مصحوبة بمناخ بارد وظهرت مجموعة جديدة من الثديات أهمها الحصان والحمار والبقر والفيل والزرافة والبعير. وقد أصبح وجود مخلفات لمثل هذه الحيوانات في مراحلها الأولى في موقع التنقيب يدل على أن الطبقة التي وجدت فيها تعود إلى بداية البلايستوسين.

ويمكننا القول أن القرن العشرين كان قرن البحث عن أسلاف الإنسان. وقد بذلت في هذا المضمار جهود خارقة من قبل العلماء على اختلاف تخصصاتهم المتساندة. إلا أن الخلاف لا يزال قائماً والجدل لا يزال محتدماً فيما بينهم حول أهمية وتصنيف وتأريخ ما وجدوه من بقايا وأحافير بشرية نظراً لزهد الحصيلة والفجوات التي تعاني منها والحالة المزرية التي وجدت بها وملايين السنين وآلاف الأميال التي تفصل أحياناً بين عينة وأخرى، ناهيك عن تباين الخلفيات العلمية والتوجهات النظرية لمختلف المختصين المشتغلين في هذا المجال. ووجود الأحافير البشرية في متاحف وأماكن متفرقة متباعدة جعل من الصعب النظر إليها وفحصها مجتمعة للخروج بتصور واقعي وملموس لما بينها من تجانس أو اختلاف. وهناك من المختصين من يبالغ في التركيز على التباينات والاختلافات بين الموجودات ويحدوه أدنى فرق بينها إلى فصلها في فصائل مختلفة ووضعها تحت أسماء مغايرة ويسمى هؤلاء «سبليتيرز»، بينما هناك من يرون أن هذه الفروق لا تتجاوز الحدود المعترف بها بين أبناء النوع الواحد، ويسمى هؤلاء «لامبيرسر». والبعض يعطي اسماً لمستحاثة يجدها ثم يغير رأيه لاحقاً ويعطيها اسماً مختلفاً بعد أن تتبين له حقائق جديدة أو اكتشافات جديدة. لذلك جاءت هذه الأحافير تحمل العديد من الأسماء المتضاربة التي تتعارض أحياناً والتي يصعب حفظها، بل أحياناً نطقها، وأصبح الوضع قريباً من الفوضوي. ومن المفارقات في تاريخ دراسة تطور النوع البشري أن أحدث الأحافير جيولوجياً تم اكتشافها في شرق آسيا مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين قبل اكتشاف الأحافير الأقدم جيولوجياً في أفريقيا لاحقاً في منتصف القرن العشرين، مما زاد في اضطراب الوضع. وقد

أدرك العلماء صعوبة التعامل مع المادة وهي على هذه الحالة، بل وحتى صعوبة الحديث فيها والكتابة عنها والتفاهم حولها. ولكن في الوقت نفسه ظلت هذه النظرية والاعتقادات حيز الاعتراف والمجهول، فتارة نرى علماء ينفونها وتارة نرى علماء يؤكدونها والنفي كان دائماً غير كافٍ وذلك لأننا لا نتحدث عن البديل..!

إذاً عندما تفشل نظرية من هذه النظريات يأتون بأخرى كما فعل السيد «فيورباخ» تلميذ هيغل حينما فشل أستاذه في تزوير «نظرية التلخيص» فبدأ هو بإظهار نظرياته البديلة مبتعداً عن الفيزياء والجينات ملتفتاً إلى الأمور النفسية والروحية والتي لا يمكن إنكارها إلا بالعقل وذلك ليرسخ مبدأ «اللا إلهية» عند الشعوب،وقد كان هذا الهدف هو الأول والأخير لكل من ماركس وفرويد. وسنرى عمليات التزوير التي قام بها التطوريون في فصل «معالجة التطور». ومع الأسف فإن هذه النظريات تدرس في جميع المدارس المتوسطة والثانوية وحتى الصفوف الأخيرة في الجامعات وتم تخصيص فروع تدريس علم خاص بهذه النظرية في الجامعات وسميّ بعلم «الأنثروبولوجيا» وذلك للحفاظ على آخر أنفاس هذه النظرية أو للحفاظ على آخر أنفاس هذه الإيديولوجية إن صح التعبير. وكأنها حقائق علمية مبرهنة على البراهين الواقعية والغريب أنه إلى يومنا هذا ومازالت معركة التطور مستمرة حول إقناع البشرية بأنها هي الحقيقة الأولى والأخيرة للخلق، وسأقوم بسرد بعض الدراسات الحديثة قبل البدء بالمعالجة وذلك للتأكيد والتنويه إلى أن معركة التطور مازالت مستمرة إلى يومنا هذا.

❑ ❑ ❑

بعض الدراسات الحديثة التي تخص التطور

الدراسة الأولى: جينات الذيل عند الإنسان | نظرية التطور

مكنت الاكتشافات الطبية المكثفة من دراسة دقيقة للعيوب الخلقية. لعل أكثرها إثارة للاهتمام، المتعلقة منها بالإرث الجيني المشترك مع الثدييات الأخرى فيما يعرف بـ«التأسل الرجعي»، كظاهرة الذيل الحقيقي عند الولادة. وهي نادرة الوقوع، (100 حالة ذكرت بالأدب الطبي) وتختلف عن الذيل الكاذب، الذي هو عبارة عن آفة بسيطة تتواجد صدفة أسفل الحوض.

في المقابل، الذيل الحقيقي الرجعي هو نتاج تراجع غير تام للجزء السفلي للجنين، أي ذيله، وهي ظاهرة حميدة لا تهدد صحة المولود.

يتكون الذيل من نسيج معقد لعضلات إرادية وفي محوره أوعية دموية وألياف وخلايا حسية عصبية، وهو مغطى بطبقة جلدية (كالتي تغطي باقي الجسد) مع بُصيلات شَعرية، وغُدد عَرقية ودهنية. أما طوله فيتراوح بين 2.5 و12.5 سنتيمتر وبالاستطاعة تحريكه إرادياً وفق الحالة العاطفية للمولود.

عـادة مـا يفتقـد الذيل لهيـكل عظمـي، إلا أن بعض الحـالات تصف ذيولاً بغضاريـف وفقـرات متصلـة. هـذا مع العلـم ان ألمكونـات العظميـة ليست ثابتـة الوجود بذيول الثدييات كالمَكَاك البربري وهو مـن الرئيسيات التي لها ذيـل لا ينمـو ولا يُكَـون فقـرات.

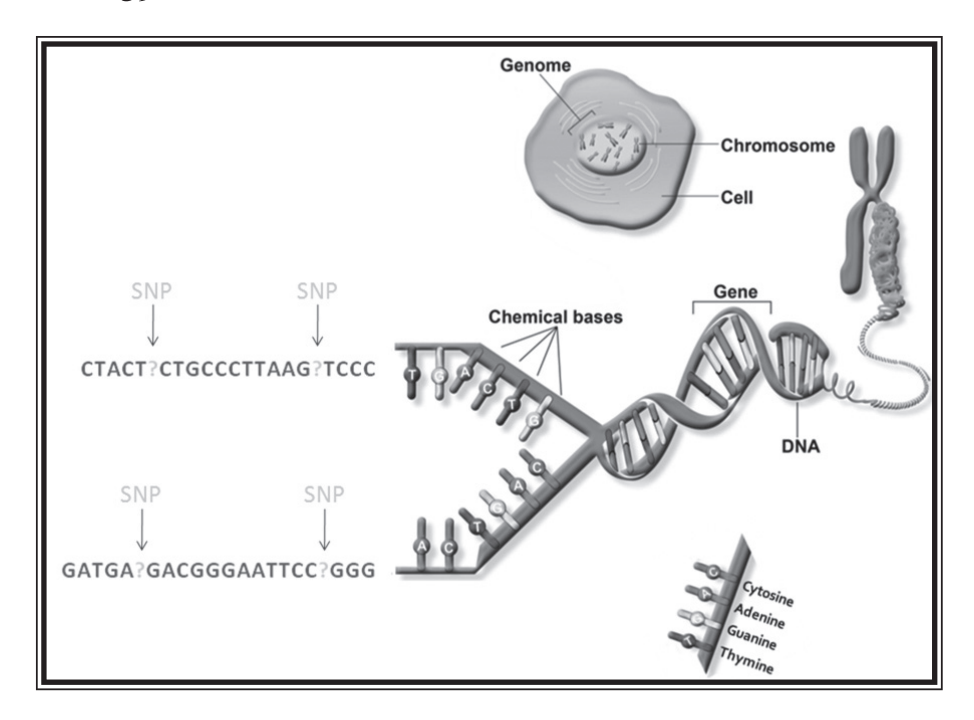
التـوارث العائلـي للذيـول الحقيقية نادر والحـالات الطبية المذكورة فـي السيـاق قليلـة، ولعـل أهمهـا تـوارث ثلاثـة نسـاء للتشـوه عـبر ثلاثة أجيـال.

يمكـن اختصـار الأسبـاب المؤديـة للتأسـل الرجعـي في آليتـين، فإما طفـرة جينيـة أو مؤثـرات محيطية تعيـد تنشيـط النمو البُنيـوي لأعضاء أو وظائـف احتُفِـظَ بهـا مشفـرة فـي الجينـوم البشـري.

تم تعريـف الجينان التـي تتحكم في نمو الذيل لدى الفئران وفقاريات أخـرى، وهمـا Wnt - 3a و Cdx1.

وكمـا كان متوقعـاً بحكـم الإرث الجينـي، فقـد عـثر عليهمـا لـدى الإنسـان. الـذي يشهـد جَنينه، فـي فترة متقدمـة من الحمـل، عملية موت مبرمـج للخلايـا فـي مستـوى الذيـل فتتـم إزالتـه بعـد أسابيـع قليلـة من تكوينــه.

حيـث أضحـى معلومـاً اليـوم، أن كبح الجـين Wnt - 3a يساهم في المـوت المبرمـج لخلايـا الذيل لـدى كل مـن الفئـران والإنسان. وفـي حالة فريـدة اكتشـف باحثـون فـأرة بدون ذيـل بسبـب طفـرة أنقصت مـن كمية هـذا الجين فـي خلاياها، وما يحدث لدى الجنـين البشري هـو العكس، طفرة أو ظـروف محيطيـة تزيـد من تعبير الجـين Wnt - 3، وبالتـالي منع موت الخلايـا والاحتفـاظ بالذيـل.



انتقادات:

مبدأ التأسل الرجعي لم يتلق ترحيباً من أطراف معارضة للتطور كـ «دوان جيش» الذي اعتمد على حالة واحدة في رده والتي وصفها كونها مجرد عيب خلقي بسيط اعتبرها البعض ذيلًا، لا تحوي فقرات ولا عضلات ولا يمكن تحريكها.

يبدو أن «دوان جيش» اعتمد في وصفه على ذيل كاذب، والذي بيّنّا سابقاً أنه مختلف عن الحقيقي ولا يعكس تراجعاً تطورياً.

ونعيد التذكير بأن الفقرات ليست ضرورية الوجود في ذيول الثدييات وحتى الرئيسيات ثم إن العثور على الجينات المسؤولة عن تكوين الذيل في الجينوم البشري في حالة معطلة يتماشى والنظرية التطورية[1].

(1) http: //www. talkorigins. org/faqs/comdesc/section2. html#atavisms___ex2

الدراسة الثانية: الكروموسوم الثاني عند الإنسان ودلالته التطورية

البشر لديهم 46 كروموسوم، في حين أن جميع القردة العليا لديها 48 كروموسوم، هذا ما جعل العلماء يضعون فرضية بأنه قد تم دمج كروموسومين من كروموسومات السلف المشترك عند نشوء البشر بحيث يكون العدد النهائي 46.

إذاً كيف حصل ذلك؟ العلم الحديث ودراسة الجينوم البشري ومقارنته بجينوم الشمبانزي أكدوا حقيقة أن في فترة ما بعد انفصال خطنا التطوّري عن الشمبانزي (قبل 6 مليون سنة تقريبًا) حصل اندماج كروموسومي لزوج من الكروموسومات فتقلص عددها من 48 إلى 46 كروموسومًا.

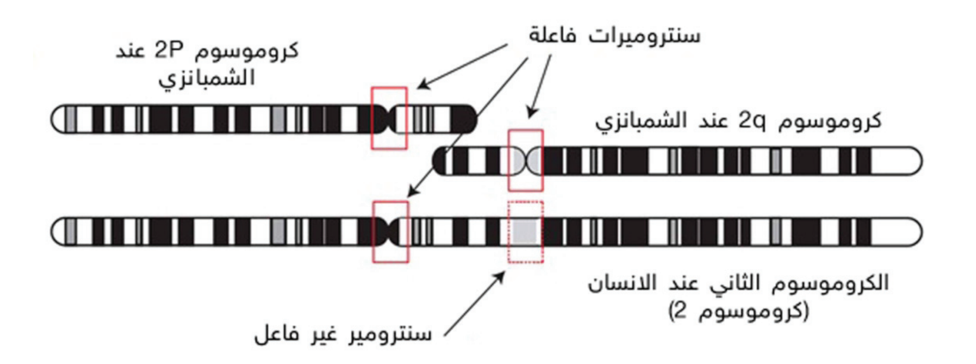
تمت مقارنة 2p و2q للشمبانزي مع الكروموسوم الثاني عند البشر ووجد العلماء التالي:

1. الكروموسومان 2P، 2Q عند مقارنتهما مع الكروموسوم 2 يلحظ وجود تطابق بينهما.

2. هناك مناطق تدعى التيلومير وهي مناطق غير مشفرة للبروتينات ووظيفتها حماية الكروموسوم من التآكل أثناء الانقسام، في حال حصول التحام بين كروموسومين فإنه يجب أن تكون هذه المناطق موجودة في منتصف الكروموسوم 2 ويجب أن تكون مطابقة للتيلومير في الكروموسومين 2p، 2q وفعلا تم إيجاد التطابق.

3. السنترومير (منطقة في منتصف الكروموسوم) للكروموسوم 2 مطابق للكروموسوم 2p.

4. يمكن إيجاد بقايا للسنترومير من الكروموسوم 2q في المنطقة التي يجب أن تكون فيه.



لذلك يعتبر موضوع السلف المشترك حقيقة علميّة لا غبار عليها بحسب الدراسة، وهي حقيقة صارخة كحقيقة دوران الأرض حول الشمس، هذا الالتحام سببه أن الكروموسومات أثناء عملية الانقسام تعاني ارتصافاً، وقد يتخلل هذا الارتصاف عملية ارتباط وعبور في بعض الأحيان فتحدث عملية «عدم ارتصاف» تؤدي إلى حدوث عملية الالتحام. وهذا الاندماج الكروموسومي ليس خاصاً بالإنسان وحده بل هو يحدث بالأنواع المتقاربة دائماً مثل الأنواع المتقاربة لجنس الخيول والأنواع المتقاربة لجنس الأغنام[1].

الدراسة الثالثة: أدمغة الرئيسيات تتبع نمطاً تطورياً يمكن التنبؤ به.

حقق علماء الأعصاب تقدمًا كبيرًا في فهم تطور دماغ الرئيسيات بعد أن تبين لهم أن أدمغة الرئيسيات من أصغرها حجمًا (كقردة العالم الجديد) إلى أكبرها (كالإنسان) تتبع نفس النمط الجيني في تطورها. هذه الدراسة تم نشرها في (Journal of Neuroscience).

هذه الدراسة تتحدى المفهوم السائد بأنّ زيادة حجم مناطق معينة

(1) http: //www. ncbi. nlm. nih. gov/pmc/articles/PMC52649/pdf/pnas01070 – 0197. pdf

في دماغ الإنسان كالفص الجبهي والفص الصدغي كان سببه حدوث طفرات معينة، إذْ تبين أنّ هذه المناطق يزداد حجمها بشكلٍ طبيعي مع ازدياد حجم الدماغ.

قام الباحثون باستخدام خرائط أدمغة وبيانات تصوير مغناطيسي مع برنامج حاسوبي، وقارنوا مناطق مختلفة من دماغ الإنسان مع ثلاثة أنواع من الرئيسيات: الوستينى (قرد أمريكي صغير) والكبوشي والمكاك. لاحظوا أنّ هذه المناطق ازداد حجمها بشكلٍ طبيعي مع ازدياد حجم الدماغ.

هذه المناطق الدّماغية تشمل الفص الجبهي الأمامي المسؤول عن التخطيط للمستقبل واتخاذ القرارات وتغيّر السلوك، وتشمل أيضًا منطقة (تلاقي الفص الصدغي بالجداري) والمسؤولة عن الإدراك الذاتي وإدراك الآخرين. يقول البروفيسور «مارسيللو روسا»، قائد البحث من جامعة موناش: «لقد وجدنا أنه كلما زاد حجم الدماغ، زاد حجم هذه المناطق الدّماغية. لو قارنت دماغ قرد كبوشي الموجود في أمريكا الجنوبية مع دماغ قرد المكاك الموجود في آسيا فستجد أنّ أدمغتهم متشابهة بشكلٍ شبه كامل على الرغم من أنهما تطورا في منطقتين متباعدتين من العالم، وهو ما يشير إلى أن أدمغتهم تتبع نفس النمط الجيني التطوري لكيفية نمو دماغ الرئيسيات».

الخطوة القادمة للعلماء ستكون مقارنة أدمغة القردة الأقرب لنا تطوريًا كالشمبانزي والغوريلا ليروا إن كان هذا النمط الجيني التطوري ينطبق عليهم كما تتنبأ هذه النظرية[1].

الدراسة الرابعة: أحفورة لسمكة تُظهر آلية تطورية جديدة لإطالة الجسم.

الثعابين والأنقليسات (نوع من السّمك) لديهم أجسام مُطوَّلة، نحيلة، ومرنة في كل الأبعاد الثلاثة. شكل الجسم هذا تطور في العديد من

(1) http: //www. sciencedaily. com/releases/2013/10/131008102559. htm

المرات في تاريخ الفقاريات (أكثر من 500 مليون عام). بناءًا على معرفتنا الحاليّة، الإطالة القصوى لمحور الجسم حدثت بإحدى الطريقتين: من خلال إطالة فقرات العمود الفقري، أو من خلال تطوير فقرات إضافية وعضلات مصاحبة لها.

الأحفورة من السّويد مُكتشفة عام 2003 عمرها 240 مليون سنة وهي لسمكة بدائية يبدو أنها لم تكن مرنة كأنقليسات اليوم، ولم يكن يمكنها السباحة بسرعة من غير إرهاق كسمك التونا. هذه الأحفورة المحفوظة بشكلٍ رائع لسمكة تُدعى Saurichthyscurionii البالغة من الطول تقريبًا نصف متر، لا يظهر بها العظام فقط بل والأوتار والروابط التي تربط عضلات السمكة.

بسبب شكل وترتيب الأوتار المحفوظة، فهي تخبرنا عن آلية ثالثة لم تكن معروفة مسبقًا لإطالة هيكل الجسم ميزت التطور المبكر للأسماك، طبقًا لدراسة أجراها علماء حفريات قديمة من جامعة زيوريخ.

بعكس كل الأسماك المعروفة، فالعمود الفقري لهذه السّمكة لا يحتوي على قوس فقري واحد لكل قُسيم عضلي، بل قوسين، وهو شيء استثنائي. هذا تسبب في إطالة الجسم وإعطائه الشكل العام الممتد[1].

❒ ❒ ❒

(1) http: //www. nature. com/ncomms/2013/131007/ncomms3570/full/ncomms3570. html

معالجة التطور

- مدخل:

دائماً كانت حجة «الداروينيين» العقلانيين أنه برغم وجود تناقضات كثيرة ولكن ليس هناك تفاسير بديلة لنشوء الإنسان أو تطوره أو عمره، من أين وكيف؟.. دائماً كان الجواب يأتي من رجال الدين استناداً لآيات أو أقوال في صحف دينية متعددة منها الإسلام والمسيحية واليهودية فكلها دعت إلى التوحيد الإلهي ولكن الدارويني كان دائماً يعارض الفكرة لأنه أصلاً لا يؤمن بهذه الكتب، ومن هنا انطلقت فكرة أن أعمل بنفسي في نفي هذه النظرية وإيجاد البديل الحقيقي استناداً إلى المنطق والذي هو نفسه سلاح الدارويني. آملًا من الخالق أن يوفقني.

الملفت للنظر في موضوع نظرية التطور، أن هذه النظرية خرجت من كونها نظرية علمية قابلة للصواب أو الخطأ و تحولت إلى «أيديولوجية للّاوجود الإلهي» يدافع عنها أنصارها، ولا يترددون حتى في القيام بعمليات تزوير مشينة من الناحية العلمية والأخلاقية، وهذا ما لا نراه في النظريات العلمية الأخرى، فلا نرى عالماً في الفيزياء أو في الكيمياء أو في أي علم من العلوم يقوم بعملية تزوير لإثبات صحة نظريته أو صحة القانون الذي اكتشفه، فغاية العلم هي الوصول إلى الحقيقة. بينما نرى

أن عمليات التزوير العلمية منحصرة في موضوع نظرية التطور فقط!

إذاً من غير الممكن أن تتجاوز الداروينية مرحلة النظرية وهذا هو أحد أسباب قيامي بتناول هذه النظرية في كتابي..

آملًا من الله تعالى أن يوفقني ويوفق قارئي في سهولة تقبل معلومات هذا الكتاب

على ضوء بعض أوجه التشابه الموجودة بين المخلوقات وفي ضوء التأثيرات التي تلقاها من العلماء قام داروين بتأسيس نظريته على هذه الأسسس الرئيسية التالية والتي شرحناها بشكل مفصل أكثر في الفصول السابقة وهي:

تقوم الظروف الخارجية وأحياناً التأثيرات الداخلية بإجراء تأثير على الكائنات الحية حيث تؤدي هذه التأثيرات إلى تغيرات كبيرة أو صغيرة فيها، تلعب هذه التغيرات بدرجة ما دوراً مفيداً للأحياء بشكل أو بآخر.

تنتقل هذه التغيرات الطفيفة عن طريق الوراثة إلى الأجيال والأنسال القادمة.

بالإضافة إلى أساس «الانتخاب الطبيعي» والذي يفسر أنه: نتيجة لشح الغذاء بسبب التزايد السكاني فإن الأحياء تضطر للتصارع فيما بينها. وحياة الأحياء عبارة عن هذا الصراع. والطرف القوي في هذا الصراع هو الذي يبقى ويستمر في الحياة، أما الضعفاء والمغلوبون فمصيرهم هو الزوال حتماً.

كما أن المصائب والبلايا ستبيد الضعفاء وعديمي المقاومة، فلا يبقى على وجه الأرض سوى الأنواع القوية. وتستند هذه الفكرة إلى الرأي الاقتصادي لمالتوس والذي لخصناه قبل.

إذاً ومهما كان احترامي كبيراً لداروين فإنني لا أستطيع أن أوافقه ولا أوافق من يفكرون مثله. لأن داروين يقول بأن الحياة نشأت بالمصادفات العشوائية نتيجة عدة عوامل، حتى لو كان في الإمكان البحث عن أسباب مادية لبدايات الخلق فإن النتيجة ولا سيما في موضوع نفخ الحياة هي فوق جميع الأسباب تماماً.

وهنا وقبل البدء بمعالجة أيديولوجية التطور منطقياً وعلمياً أردت أن أجرد وبشكل سريع عمليات التزوير التي قام بها بعض أساتذة الداروينية في محاولة منهم لإقناع العقول بأن الإنسان «حيواني».. ومن بعد هذا الجرد سأقوم أيضاً بمناقشة استحالة «حيوانية» الإنسان من مبدأ المنطق بغض النظر عن كل الأدلة الدامغة على أن كل ما جرى من عمليات تزوير قد تم كشفها وبالتالي معالجة الداروينية.

أولاً: عمليات التنوير:

أولى عمليات التزوير هذه قام بها العالم الألماني «ارنست هيجل 1824 - 1919» حيث أنه عندما رأى أن صور الأجنة لا تتطابق تماماً مع هذه النظرية قام بعمليات رتوش وحذف في صور الأجنة البشرية لكي تتطابق مع «نظرية التلخيص» Recapition Theory وهي إحدى النظريات السابقة التي قدمت كبرهان على نظرية التطور ثم نفض العلماء أيديهم عنها بعد ثبوت خطئها.

وبعد أن كشفه أحد العلماء قام هيجل بالاعتراف بجريمته العلمية بعد فترة صمت وتردد فاعترف في مقالة كتبها في 14/ 12/ 1908 وقال فيها:

(إن مـا يعزيه هو أنه لم يكـن الوحيد الذي قـام بعملية تزوير لإثبات صحـة نظريـة التطور بل هناك المئات من العلماء والفلاسفـة قاموا بعمليات تزويـر في الصـور التي توضـح بنية الأحياء وعلـم التشريح وعلـم الأنسجة وعلـم الجينـات لكـي تطابـق نظريـة التطـور).

بعـد هـذه الفضيحـة الموجعـة التـي تلقاهـا روّاد هيجـل جاء طالبـه «فيورباخ» ليبـدأ بأفكار جديـدة ونظريـات نفسية مختصـة بألوهية الإنســان «الفرد» مختصـراً على نفسـه الطريق في إثبـات حيوانية الإنسان بهـدف التلحيـد هاربـاً من موضـوع الإثباتـات الملموسة فـي قناعة منه إلى أنـه إذا تم كشـف التزويرات التي قام به أستاذه فإنـه يصعب على المرء أن يكشـف التزويـر المعنـوي أو الروحاني. وهذا مـا سوف أتطـرق إليه وأعمل علـى معالجتـه فـي الفصل الأخيـر (معالجة الإلحـاد) مـن هـذا الكتـاب.

وأكثرنـا سمـع بعمليـة التزويـر المشهـورة التـي جـرت فـي إنكلـترا، وهـي عمليـة تزويـر «إنسـان بلتـداون piltdown man» والتي بدأت في 1912، فقـد صنعـوا جمجمـة مـن تركيـب قحـف إنسان علـى فك قـرد اورانجتون مـع إضافـة أسنـان إنسانيـة إلى الفـك، وقدموا هـذه الجمجمة علـى أنها الحلقـة المفقودة بين القرد والإنسـان. وخدعت هذه كبار علمـاء البيولوجيا وأطبـاء الأسنـان الذين فحصـوا هذه الجمجمـة المزيفة مدة تقارب ال 40 سنـة، وألفت المئـات والآلاف من الكتـب وتم تقديم رسائـل دكتوراه عديدة وكتـب ما يقـارب مليون مقالـة حولها فـي شتى صحـف العالم. إلى أن جاء العـالم «كينت أوكلي» فـي سنة 1949 وقام بإجـراء تجربة الفلـور على هذه الجمجمـة فتبين أنهـا ليست قديمة (أُدعـي سابقاً عمرها يبلـغ نصف مليون سنــة). ثـم قام «كنيت اوكلـي» و«سير ولفود لي كروس كلارك» مـن جامعة إكسفـورد لعلـم الإنتروبولوجيـا بإجراء تجارب أكـثر دقة واستخدمـوا فيها أشعـة إكـس فتبـين أن هـذه الجمجمـة زائفـة تمامـاً ومصنوعـة. وجاء في

التقرير الذي نشر سنة 1953 (أن «إنسان بلتداون» ليس إلا قضية تزوير وخداع تمت بمهارة من قبل أناس محترفين، فالجمجمة تعود لإنسان معاصر. أما عظام الفك فهي لقرد أورانج بعمر عشر سنوات والأسنان أسنان إنسان غرست بشكل اصطناعي وركبت على عظام الفك وظهر كذلك أن العظام عوملت بمحلول ديكرومايت البوتاسيوم لإحداث آثار بقع للتمويه وإعطاء شكل تاريخي قديم).



وأثناء قيامي بجولة داخل وثائق الأنثروبولوجيا المتعلقة بكشف فضائح من نظرية التطور وجدت قصة حادثة «إنسان نبراسكا» فقد عثروا على سن واحد ليعلنوا أن صاحب هذا السن هو الحلقة المفقودة التي يبحثون عنها، ونشروا صوراً خيالية لهذا الإنسان، بل حتى عن حياته العائلية، وقدّم علماء التطور هذا السن كدليل في محكمة «سكوبس1» عام 1925 وعندما اعترض الطرف الآخر والذي كان مؤلفاً من الأستاذ «كونكلن» أستاذ البيولوجيا في جامعة برنستون، والدكتور «اوسبرن» رئيس أمناء متحف التاريخ الطبيعي بنيويورك، والدكتور «دفنبرت» مدير دار النشوء في معهد كارنيجي بواشنطن على هذا الدليل سخروا من جهلهم! ومع أن المحكمة أصدرت قرارها بإدانة السيد«سكوبس» إلا أن الضجة التي أثارها أنصار «التطور» في الصحافة وفي المحافل العلمية جلبت عطفاً كبيراً للمهتم وغضباً من المحكمة.

في هذه المحكمة قدّم علماء التطور هذا السن كدليل لا يُنقض على صحة التطور، لأنهم اخترعوا من هذه السن الواحدة إنساناً أسموه «إنسان نبراسكا» وأظن أنهم أطلقوا عليه اسماً لاتينياً رناناًليصبغوه صبغة علمية.

ولكن تبيّن فيما بعد أن هذه السن لا تعود لإنسان، ولا لقرد... بل لخنزير بري!

صراحةً أنا شخصياً لم أستطع أن أقرأ هذه الوثيقة دون أن أذكرها في كتابي.. تأملوا مدى المبالغات الموجودة في تفسيرات علماء التطور للمعطيات العلمية أو للمتحجرات التي يعثرون عليها ومدى انحرافهم عن النهج العلمي الذي يجب أن ينطلق من مبدأ «الموضوعية» في تفسير المعطيات والظواهر العلمية والطبيعية، إذ ينطلق هؤلاء العلماء من فكر مسبق وهو أن نظرية التطور صحيحة.

إذاً فهناك مئات من عمليات التزوير وليست عملية واحدة، وعلى مثل هذه العمليات قامت نظرية التطور وانتشرت وتمت بها أيضاً عملية غسيل دماغ الجماهير في هذا الموضوع وأصبح من لا يؤمن بها رجعياً جاهلًا...!!

ولكن والأهم من هذا كله أنه بعد الكشف عن عمليات التزوير هناك من اقتنع كامل القناعة أن هذه النظرية خاطئة لمفهوم «تطور الإنسان» إلا أنه استمر بالحفاظ على فجوة «ماهية الإنسان» فارغة عقيمة في عقله من دون أي بديل منطقي يساعده على الإيمان بأن لماهية الإنسان حقيقة علمية ومنطقية واضحة وضوح الشمس وهنا تكمن أهمية هذا الكتاب في إيجاد البديل السهل لملء هذه الفجوة بأفكار مستوحاة من المنطق والواقع تساعد هذا الشخص على التخلص من إشارات الاستفهام المتعلقة بأسئلة «إنه إذا كانت نظرية التطور خاطئة فعلًا فما هو أصل الإنسان ومن أين أتى وكيف»..

إذاً عزيزي القارئ، إن معالجة نظرية التطور «علمياً ومنطقياً» وهنا علمياً لا أقصد فيه كشف مزيد من عمليات التزوير وحسب بل أقصد أنه وبقليلٍ من التفكير الحيادي الغير مسنود لمرجعية دينية أو طائفية أو حتى إلحادية، سترى أنك تلقائياً بدأت في الإجابة على سؤال «ماهية الإنسان ومن أين وكيف ولماذا؟».

ثانياً: معالجة الأسس التي استندت إليها الداروينية:

A) **التشابه:**

كما رأينا سابقاً أن نظرية التطور تقوم على أساس «التشابه»، وتعتمد عليه بشكل أساسي في تأكيد صحتها فما هو التشابه؟ وكيف نعالجه؟

تنطلق الداروينية من المشابهة والتشابه الموجود في الطبيعة. فهي

تـرى أن بعضـ الأعضـاء الضامرة الموجودة فـي بعض الأحيـاء الراقية هي آثـار عن أسلاف بدائيـة كانت مفيدة لهـا، ولكنهـا أصبحت دون فائدة بعد قطـع هـذه الأحيـاء لمراحـل تطوريـة معينـة، ولكون هـذه الأعضـاء لا تفيد فـي هذه المرحلـة الجديدة مـن التطور لذلـك الكائن، فقد بقيـت كأعضاء ضامـرة وأثريـة.

فمثـلًا تقـول نظريـة التطـور فـي التشابه أن وجـود الشعر فـي جسم الإنسـان دليـل علـى أنـه ورث هـذا الشعر مـن الشعـر الموجود فـي أجساد الثدييات، وفـي المراحـل التطورية التـي مر منهـا الإنسـان تساقـط القسم الأكـبر مـن هـذا الشعـر ولم يبـق إلا فـي مناطـق معينـة...

مثـل هذه الإدعـاءات لداروين لا تستند إلى برهـان حقيقي. لأن وجود الوجـه والعين والأذن في الإنسـان لا يشكل دليلًا على أنـه تطور من القرد. كمـا لا يشـكل وجود هذه الأعضـاء في بعض الأحيـاء دليلًا علـى أن بعضها قـد تطور من بعض. فهناك تشابه كبير بـين العديد من الكائنات الحية فـي العالم. جميـع هذه الكائنـات الحيـة تستنـد إلى عناصـر رئيسية أربعة هـي: النتروجـين، الكربـون، الأوكسجـين، والهيدروجـين. كمـا أن الإنسان والحيـوان يتغـذون أغذيـة مشتركة، ومع ذلـك فإن جميـع أنواع الموجودات وكذلـك البشر يبدون في نواح عديـدة فروقاً كبـيرة فيمـا بينهم.

إن التشابه في المظهر الخارجي أو فـي البنية الداخلية لا يوجب تطور الأحيـاء بعضهـا مـن بعض وعلى الرغم مـن النشـأة المشتركة، فإن الفروق الموجـودة بـين الكائنـات تظهـر أن الغايـة من الخلـق ووظيفة ذلـك الكائن وموقعـه يأتـي في المقدمـة وأن البنية الماديـة تنظم على هـذا الأساس. فلا يمكـن بنـاء بنـاء عشوائي أو بنـاء جميل ثـم إعطاء الوظيفة له فيما بعد .

ولا يمكـن تشـكيل الكلمـات في الذهـن أو كتابـة كتاب قبل وجـود فكرة أو معنـى فـي الذهـن.

إن الأحـرف التـي تشكل الكلمـات واللغات هـي نفسها، ولكن كل كلام يتـم التعبير عنه بتلك الإشارات والأحرف المحدودة في أعدادها. ولو كانت هنـاك كلمـة من سبعة أحـرف فإنها تختلـف تماماً عن كلمات أخـرى تتشابه معهـا في ستة أحرف، لأن اختلاف حرف واحد يبدل المعنـى ويجعلها مختلفة عـن الكلمات الأخـرى. كما أن هنـاك احتمال وجـود سبع كلمـات مختلفات لهـا سبعـة أحرف... ووجود ستة أحـرف مشتركة بين هـذه الكلمات لا يدل علـى أنهـا مشتقـة مـن جذر واحـد! لأن المعنـى هو الـذي يحـدد ماهية كل كلمـة ويحـدد حروفهـا. ونظير هـذا فـإن الوظائـف المتشابهـة تقتضي عند الكائنـات أعضـاء وتراكيـب متشابهـة.

إن هنـاك أعـداداً غـير محـدودة مـن الكائنـات ومئـات الآلاف من الأنـواع علـى سطح الأرض ولـو كان لكل نوع وجـه خاص وأعضـاء مختلفة، ولـو كان لـكل نـوع بنيـة مختلفة وجسـد مختلف لـكان مـن الضروري وجود أنـواع لانهائيـة مـن الأعضـاء ومـن التراكيـب والبنى. ولـو تناولنـا الأمر علـى مستـوى الإنسان لـكان من الضروري أن يكـون لكل فرد تركيـب وبنية مختلفـة وشـكل مختلـف لأن الإنســان يشكل نوعـاً فريداً في عـالم الكائنات وعندهـا كان من الصعب في هذه الحالة تحقيق التقارب والتفاهم والتعاون فـي عـالم الأحياء وفـي عالم الإنسـان، ولأصبـح كل نوع غريبـاً عن الأنواع الأخـرى.. أي لـكان هنـاك عـالم لا يطـاق فيـه العيش.

ثـم إن كل شـيء مشابـه أو كل شيئـين متشابهـين ليس معنـاه العينية. فمثـلًا هنـاك أنـواع عديـدة مـن مصـادر الضـوء.. الشمس والكهربـاء والشمعـة والخشـب المحـترق يعطـي كل منهم الضـوء، ولكـن لا يمكن إرجاع الجميـع إلى مصـدر واحـد. لذا فوجـود عضو واحـد فـي الإنسان، أو عدة أعضـاء مشابهـة لما هـو موجود في الحيوانـات وخصوصـاً القردة، لا يشير ولا يبرهـن علـى وجـود تطور بـين النوعـين. لأن كل موجـود قـد أعطيت له

الأعضاء المناسبة لتحقيق وظيفته في الحياة.

أما بالنسبة لموضوع الضمور.. فقدتكون هناك في الطبيعة أشياء تبدو وكأنها غير مناسبة للبيئة وللبُنية العامة وتركيبها، بل هي موجودة فعلًا. ولكن يمكن البحث عن المعاني التي تشير إليها من جهة، ومن جهة أخرى فإننا لا نعرف بعد طبيعة بنية البيئة حق المعرفة ولم نحل جميع ألغازها.

فإن كان هناك قصر له ألف باب اثنان منهم مغلقان، فمن الخطأ الحكم بأن جميع أبواب القصر مغلقة. وكذلك لو كانت هناك شجرة لها جذور حية وقوية وجذع متين وأغصان وأوراق وثمار في تمام العافية والنضج، فإن من الخطأ الفاحش القول بأن هذه الشجرة شجرة ميتة وغير صالحة لمجرد تطور بين الأنواع من مجرد وجود عضو أو عضوين ضامرين (وبالتالي الظن بأنهما غير مفيدين).

لقد زعم داروين - انطلاقاً من وجود التشابه - أن وجود بعض الأمراض التي تصيب الإنسان تصيب الحيوانات أيضاً مما يشكل حسب رأيه دليلاً آخر في هذا الصدد (أي وجود قرابة بين الإنسان والحيوان). ولا يسعني هنا سوى ذكر ما سبق أن ذكرته في هذا الأمر.

فالأمراض المكتشفة تبلغ العشرات، بل المئات إن أخذنا بعين الاعتبار الأمراض الثانوية المتشعبة عن الرئيسية. ولو كانت هناك أمراض متعددة لكل نوع من الأنواع لكان من المفروض وجود عدد لا يعد ولا يحصى من الأمراض. ثم إن وجود أمراض مشتركة بين الإنسان والحيوان شيء طبيعي جداً ومتوقع طالما أن بنية الإنسان والحيوان مؤلفة في الأغلب من لبنات متشابهة وتؤدي مهمات متشابهة، لذا فلا يشكل هذا الأمر دليلاً له أي

قيمة في أن الإنسان متطور من الحيوان. علماً أن معظم الأمراض التي تصيب الإنسان ليست هي نفس الأمراض تماماً التي تصيب القرود. على العكس من هذا تماماً فبعض هذه الأمراض تظهر في أنواع أخرى من الحيوانات، فمثلاً يظهر مرض amfizem المزمن عند الخيول، ومرض سرطان الدم في القطط والثيران، ومرض العضلات ditrofisi في الدجاج والفئران، وتصلب الشرايين في الخنازير والحمام، ومرض سوء التخثر ومرض التهاب الكلية في الكلاب، ومرض قرحة المعدة في الخنازير، ومرض anevrizma في الديك الرومي، وحصاة الصفراء في الأرانب والتهاب الكبد في الكلاب والخيول، وحصاة الكلية في الكلاب والثيران، ويظهر مرض السد إعتام العين cataract في الكلاب والفئران وفي الطيور والدجاج أيضاً.

فهل نستطيع انطلاقاً من ذلك الادعاء أن أصل الإنسان فأر أو أنه تطور من الكلاب؟ أو أنه ترقى من الثيران؟!! إن من الطبيعي أن يصيب الإنسان والحيوان النوع نفسه من الفيروس والبكتريا، ولا يدل هذا على كون منشأ الإنسان والحيوان واحداً. وهناك أمراض تصيب الإنسان كما تصيب الطيور والدجاج التي تعد من الناحية البيولوجية بعيدة جداً عن الإنسان. فإن أرجعنا الإنسان - بواسطة هذه الأمراض - إلى الدجاج فسيكون هذا ابتعاد عن النظرية الداروينية. لأن داروين ربط الموضوع بالتطور ووضع القرد بين أنواع الحيوان والإنسان!

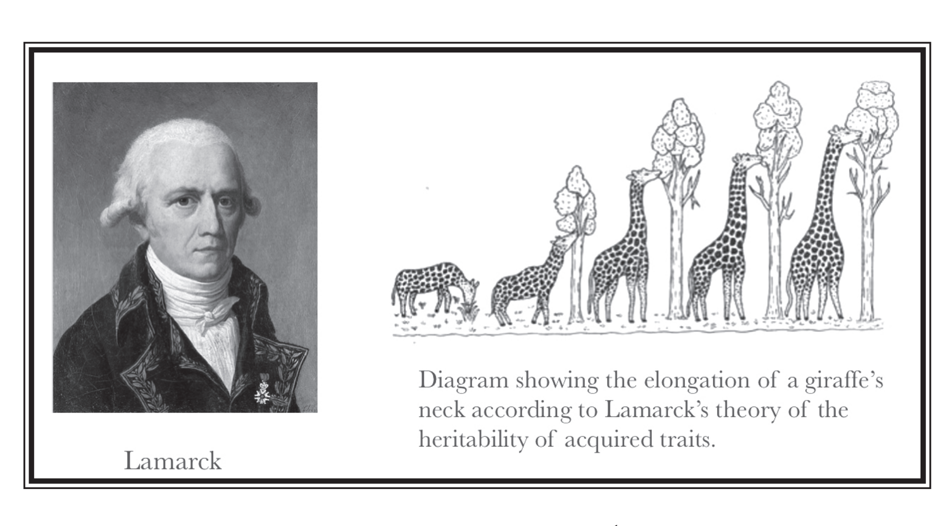
B) التكيّف والأعضاء المستعملة وغير المستعملة:

بعد أن أوضحت بأن مسألة التشابه لا يمكن أن تكون أساساً للتطور، عليَّ أن أعالج أساساً آخر من أسس الداروينية والذي ذكرته أيضاً في

الفصل السابق وهو زعمهم بأن الأعضاء غير المستعملة ستضمر بمرور الزمن، وأن الصفات المكتسبة فيما بعد عند الأحياء تنتقل إلى ذرياتها وأنسالها حسب نظرية لامارك... فلقد تبين بأن هذا الزعم لا يملك أي مصداقية. صحيح أننا نرى أن بعض الأعضاء ولا سيما العضلات عندما تستعمل كثيراً تتضخم ورافع الأثقال تتضخم عضلات ساعده وتنمو بشكل جيد ولكن ابن حامل الأثقال لا يأتي إلى الدنيا بعضلات ضخمة، ولكي يملك مثل هذه العضلات عليه أن يتمرن على رفع الأثقال. ونظير هذا المثال نجد أن اليهود يختتنون منذ أربعة آلاف سنة وعلى الرغم من مضي كل هذه السنوات الطويلة فلا يولد طفل يهودي وهو مختون. كما أن المسلمين يختتنون منذ 14 قرناً ومع هذا لم نر من ولد مختوناً. لذا فإن قبول انتقال الصفات التي يكتسبها جيل من الأحياء إلى ذرياتها عن طريق الوراثة، واعتبار هذا الأمر قضية مسلّمة لا يتلاءم مع العلم.

ومثيل هذا خرافة أخرى وهي أن الأعضاء غير المستعملة تضمر بمضي الوقت، وتنتقل ضامرة إلى الأجيال القادمة أما الأعضاء المستعملة فتقوى وتتطور. وقد ادعى «لامارك» بأن عنق الزرافة أصبح طويلاً أكثر من الاعتيادي لأنها كانت تضطر لمد أعناقها لأكل أوراق الأشجار العالية وأنها شعرت بضرورة كون أعناقها طويلة فأي حيوان لا يرغب في أكل الأوراق الموجودة في أعلى أغصان الأشجار؟ ولماذا طال عنق الزرافة ولم تطل أعناق الحيوانات الأخرى؟ من المعروف أن الماعز تتغذى من أغصان الأشجار وأوراقها على الدوام إلى درجة أنها تعد من أعداء الغابات ولكن لكون أعناقها لم تطل فهي مضطرة على الدوام لبذل جهد كبير لتسلق الأشجار.. ألم تكن الثعابين ترغب أن تكون لها أرجل تمشي عليها بدلًا من صعوبة الزحف بين الأتربة والصخور؟! وتدعي نظرية

التطـور أن أرجـل الثعابين ضمرت بمـرور الوقت وهنا يوجـد تناقض واضح لـكل عـين فلـو كان هنـاك تطور فـي عـالم الأحياء لـكان مـن المفروض أن تتطـور الثعابـين من أحياء كالـدود إلى أحياء تملك أرجـلًا طويلـة متكاملة ومتطـورة. فمـن جهة يقولون بـأن الثعابـين كانـت تستعمل أرجلهـا في عهد مـن العهود، ثـم لم تستعمل هذه الأرجـل فضمـرت! بينما لو كانـت الثعابين قـد ظهرت وهـي تملك أرجـلًا كالخيول مثـلًا لاستعملت هذه الأرجـل طبعاً. إذن لمـاذا لم تستعمـل هذه الأرجـل وانقلبت إلى زواحف؟! فمـن جهة يدّعون بـأن الثعابـين لم تستعمـل أرجلهـا ممـا أدى إلى ضمورها ومـن جهة أخرى يدعـون أن أعناقهـا طالـت بسبـب اضطرارهـا إلى الزحـف الدائـم أليس هـذا تناقض واضـح؟!



Lamarck

Diagram showing the elongation of a giraffe's neck according to Lamarck's theory of the heritability of acquired traits.

ويزعـم داروين أيضاً كذلك أن الطـير اكتسـب فيما بعـد جناحيه لكي يستعملهمـا فـي الطيران وهنا يوجـد تناقض واضح في هذا الزعم لأنه كان مـن المفروض – حسب الادعاء بأن الأعضـاء المستعملـة تتكامل وتتطور وأن الأعضـاء غـير المستعملـة يضمر – أن تضمر جناحـا الطائر، لأن الطائر لم يستعملهما طـوال فـترة عـدم صلاحيتهمـا للطـيران. لذا كان مـن المفروض

أن يضمر الجناحان وينعدمان أو يقتربان من الانعدام والاختفاء.. كما أن مثل هذا الزعم يجلب معه أسئلة كثيرة.. فكيف تكامل هذا الطائر تدريجياً قبل أن يملك جناحين صالحين للطيران ثم امتلك الجناحين فجأة؟ وكيف شعر الطائر بضرورة امتلاكه للجناح؟ وكيف قام بتطوير جناحيه؟ فهل كان يتدرب على امتلاك الجناح بعد شعوره بحاجته له فظهر هذا الجناح فجأة؟ وقبل أن يمتلك الطير الجناح أكان يتجول مع الحيوانات الأخرى؟ أم كان له عضو حافظ عليه وكان يستخدمه سابقًا وتحول هذا العضو إلى جناح؟

فكيف حافظ على هذا العضو وبأي عامل؟ لا يملك داروين ولا الذين تبنوا نظريته بكل تعصب - وكأنها حقيقة لا شك فيها - أجوبة مقنعة حول هذه الأسئلة.

نرى أن الذين يصرون على التمسك بنظرية التطور أي يصرون على فكرة أن الأعضاء غير المستعملة تضمر وأنها تنتقل بالوراثة إلى الأجيال اللاحقة، يقدمون مثال اللوزتين والزائدة الدودية عند الإنسان دليلًا في هذا الموضوع فأنصار هذه النظرية يقولون بأن الزائدة الدودية التي تقع بين الأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة ضامر ورثناه من أسلافنا من الحيوانات آكلة العشب لذا فلا ضرورة ولا فائدة له ولكنِّي بحثت جيداً في هذا الموضوع ووجدت أن العلم يقول أن اللوزتين عبارة عن بوابة حراسة وأمن ضد الجراثيم التي تحاول دخول جسم الإنسان عن طريق الفم. وفي قراءتي لكتاب «الطب السريري وتشخيص المرض» للبروفيسور «عثمان بارلاس» وجدته يقول أن الزائدة الدودية هي المعدة الثانية للإنسان. وغنى هذا العضو باللمف والأوعية الشعرية يشير إلى أهميتها ويحتمل أننا سنملك في المستقبل معلومات أكثر تفصيلًا حول الزائدة الدودية

ولكن ما عرضناه حولها يكفي لبيان تهافت هذا الزعم.

وتذكر نظرية التطور أن الشعر الموجود في الإنسان ضامر أيضاً، حيث يقول: «لقد كان أجداد الإنسان حيوانات ذات شعر كثيف عندما تطور وتحول إلى إنسان سقط الكثير من شعره». ولكن عندما جاء داروين ليفسر سبب عدم وجود شعر عند النساء في أكثر أجزاء أجسامهن اعتذر بعذر لا يتلاءم ولا ينسجم مع نظرية التطور فقال: «لقد كان هذا ضرورياً لجمال المرأة وجاذبيتها!!!». لقد كان من الممكن أن يكون إيراد هذا السبب مفهوماً لو تم النظر للموضوع من زاوية الحكمة ومن زاوية الخلق الإلهي ولكن الأمر ليس كذلك مع نظرية ترى أن هذا الوجود وهذا الكون ومافيه من حياة تستند إلى المادة الصماء الخالية من أي شعور أو إرادة أو حكمة، وإلى الطبيعة وإلى المصادفات العشوائية. أي أن قيام هذه النظرية في صدد إيضاح عدم وجود الشعر الموجود في الرجال في أجساد النساء إلى الحكمة وإلى سبب شعوري يعد هروباً وتناقضاً صارخاً بل هو عجز عن الهروب من الحقيقة.

وتحاول النظرية تفسير وجود الشعر في رؤوس النساء وعدم تساقطه فيقول: «بما أن الرأس معرض كثيراً للضربات فقد كان من الضروري أن يبقى الشعر عليه». ولكن أيتعرض أنف الإنسان وجبينه بل وركبته ورجله إلى صدمات أقل، لذا تساقط الشعر هنا ولم يبق فيها إلا الشيء القليل منه بينما بقي في الرأس؟!!

إنهم يقدمون حدوث التغيرات ضمن النوع الواحد من الأحياء - إما نتيجة حادثة طبيعية أو نتيجة عزل صناعي، أي نتيجة العيش في ظروف مختلفة - كدليل على التطور على أساس من التكيف للبيئة. من الممكن مشاهدة مثل هذه التغيرات في كل وقت، ولكنها تغيرات ظاهرية وتجري

ضمن النوع الواحد ولا يمكن إيراد هذه التغيرات كدليل على سلسلة عملية التكامل والتطور التي تؤدي لظهور أنواع جديدة من الأحياء. ولو تم مثل هذا الادعاء لما كان مقنعاً أبداً..!

C) المتحجرات[1]:

المتحجرات هي الموضوع الذي عانيت منه كثيراً أثناء غوصي في معالجة نظرية التطور وكما لاحظتم فإنني شرحته بشكل مفصل في الفصل السابق ولو أن التفصيل الكامل منه يحتاج لآلاف الصفحات إلا إنني تطرقت إليه من باب أنه الأهم والأعمق بالنظرية.. فهو موضوع نظري وعملي في نفس الوقت.. ويتصف بالغرابة قليلاً وستفهمون كلامي عندما أخوض معالجة هذه النقطة الداروينية..

الذين تبنوا نظرية التطور من أجل تفسير منشأ الحياة وأصلها يرون ضرورة الاستعانة بالمتحجرات، وذلك من أجل البرهنة على صحة هذه النظرية من جهة، وكذلك بسبب عدم حدوث ما يثبت وقوع أي تطور ملحوظ ضمن العهود التاريخية المعروفة من جهة أخرى.

حاولت الغوص في حياة داروين لأعرف كيف بدأ بترميم هذه النقطة الحساسة من نظريته فوجدت أن داروين بدأ بدراسة الطب في بادئ الأمر لكونه من عائلة غنية، ولكنه كان يهرب من المدرسة ويتجول في الحقول منشغلاً بملاحظة النباتات والأعشاب ومهتماً بها. وعندما لم ينجح في دراسة الطب قرر دراسة اللاهوت. والظاهر أنه كان يملك ذكاءً نظرياً،

(1) المتحجرات: بقايا الكائنات الحيّة التي عاشت في الماضي البعيد، ثن انقرضت سلالاتها تماماً، ويمكن من خلال هذه الآثار تحديد بعض ملامح الأزمنة الجيولوجية، ودراسة مظاهر الحياة فيها.

ولكنه لم يكن يملك ذكاءً عملياً بنفس المستوى، لذا نراه يرى صعوبة في دراسة الطب، وأخيراً أدت حادثة إلى عثوره على المهنة المناسبة له، فقد خرج في رحلة علمية بحرية رتبتها الحكومة البريطانية. وفي هذه الرحلة البحرية قام ببحوث في جزر المحيط الأطلسي وإفريقيا وأميركا الجنوبية وأستراليا. وقام بمقارنة بين الأحياء في جزر كلاباكوس وحيوانات سواحل القارة، ودرس بعض المتحجرات، ولاحظ النشاطات البركانية وفعاليات المرجان. كما أنه جمع بعض نماذج النباتات والحيوان.

والخلاصة أنه لكي تتم البرهنة على أن الإنسان قد أتى من سلف قردي، وأن الأنواع تتحول من نوع إلى آخر فقد ظهرت الحاجة للاستعانة بالمتحجرات للعثور على الحلقات الوسطى وعلى المراحل الانتقالية الموحدة بين الأنواع عند هذه التحولات. وأعتقد أن العاملين بهذا المجال هم علماء البالانثولوجيا (علم المتحجرات).

حساسية هذه القضية تكمن في أنه لو عثر علماء المتحجرات على متحجرات لأحياء يمثلون هذه الحلقات الوسطى، أي على الأحياء التي تمثل المراحل الانتقالية بين الأنواع وذكروا إمكانية ربط الإنسان بالقرد وفي الوقت نفسه قام علماء الجينات المحايدون بتأييدهم، عند ذلك فقط يمكن أن تحتل هذه النظرية قبولًا في المحافل العلمية وعند ذلك فقط يمكن قبول مثل هذه النظرية، وعند ذلك فقط يمكن القبول بأي شيء يدل على أن الإنسان صدفة وتطور عن أنواع وليس هناك ضرورة ليتساءل أي منا: من أين جاء الإنسان وكيف؟ ويمكن قبول أن النظرية تستحق إجراء الدراسات والبحوث حولها للغوص أكثر في ماهية الإنسان. وما لم يتم هذا لا يمكن عدّ ادعاءات التطور نظرية علمية.

هناك ثلاث متحجرات اعتمدها داروين أو التطوريون في إثبات

الحلقة الوسطى.. فدعونا ندخل بها لِنُنَاقشها ونحكم بعقولنا ما إن كانت مقبولة لدى العقل البشري أم أنها غير ذلك..

1 - متحجرة طائر.

2 - الحصان ذو الأظافر الخمسة.

3 - كائنات بين القرد والإنسان..

* * *

1 - فلنبدأ بمعالجة متحجرة طائر..

يتحدثون الآن عن متحجرة يقال أنها متحجرة لطائر طويل الذيل له أسنان، كما يملك كلابات في أجنحته، أطلقو عليه اسم «آركيوباتركس» وزعموا أن هذا الطائر هو الحلقة الوسطى بين الزواحف والطيور. ويقول التطوريون استناداً إلى هذا بأنهم قد عثروا على مرحلة تطورية وسطى بين نوعين، وأنهم سيعثرون على الحلقات الوسطى الأخرى التي تصل الإنسان بأول دودة تطور منها، وسيملؤون الفراغات الموجودة في هذه السلسلة. وهكذا سيبرهنون بأن الإنسان قد تطور من القرد.

علماً بأنه لا توجد أي علامة ولا أي إشارة بأن هذه المتحجرات خلق وسط بين الزواحف والطيور..

قرأت للبروفيسور «عاطف شنكون» - وهو من المدافعين عن هذه النظرية - يقول في الجزء الأول من كتابه (التطور) عن هذه المتحجرة:

(لا تملك هذه المتحجرة قيمة دليل في المحافل العلمية). ولو عدت هذه المتحجرة حلقة وسطى، فليس هناك من مانع إذاً من عد الخفافيش في نفس القائمة، لأن الخفاش طائر ثديي، أي من الأحياء الثديية، لذا

يمكن عده حلقة وسطى بين الثدييات وبين الطيور.

ولكن العلم لا يذكر أي عهد لم يكن الخفاش فيه موجوداً كما لم يتعرض الخفاش لأي تغيير طوال وجوده لذا لا تجد عند أنصار التطور أي نية في استعماله كدليل في موضوع التطور. في الوقت الحاضر هناك بعض الطيور التي لها أسنان في منقارها وكلابات (أصابع) في أجنحتها مثل متحجر ذلك الطائر وأفضل مثال على هذا صغار طائر Opisthocomushotzin لذا فإن الاستناد إلى مثل هذه المزاعم الواهية - في الوقت الذي لم يتم فيه الكشف عن جميع الأحياء التي عاشت حتى الآن، بل لم يتم الكشف حتى عن جميع الأحياء التي تعيش حالياً - والبحث بهذه الطريقة عن الحلقات الوسطى حتى الوصول إلى الإنسان ليس إلا عبثاً لا طائل منه ولا يفيد في شيء. لأنه كان من المفروض وجود المليارات من متحجرات الحلقات الوسطى التي تبين مراحل الانتقال بين ملايين الأنواع من الأحياء. ومع أنه تم العثور على أعداد كبيرة جداً من متحجرات الأحياء التي عاشت سابقاً ثم انقرض نسلها إلا أنه «لسبب ما» لم يعثر حتى الآن على متحجرة واحدة كأنموذج وكمثال على أي مرحلة انتقالية أو حلقة وسطى بين الأنواع.

بعض الأحياء التي خلقت وعاشت في الماضي ثم انقرضت لأسباب عديدة على رأسها عدم تكيفها مع البيئة كالديناصورات، تشكل أمثلة على الانقراض وليس على التطور. غريب أن أتصفح مواقع السي أن أن والساينس والبي بي سي علوم في القرن الواحد والعشرين وأن أجد إصراراً واضحاً على صرف مبالغ طائلة في سبيل إثبات هذه النظرية والبحث عن حلقات وسطى دون الاستسلام وكأن هذه المعاهد لا تعمل من أجل الوصول إلى الحقيقة إنما هي مشغولة بنظرية التطور لكونها وسيلة في الوقوف ضد فكرة الخلق..

2 - الحصان ذو الأظافر الخمسة:

أحد الأدلة المزعومة التي يستند إليها التطوريون في موضوع المراحل الانتقالية هو أسطورة الحصان ذي الأظافر الخمسة، فحسب هذا الزعم كان الحصان في السابق بحجم الثعلب ويملك خمسة أظافر ومر بعد ذلك من مراحل Eohippus و Mesohippu و Merychippus وأخيراً من مرحلة Pilohippus وفي هذه المراحل قلّ عدد أصابعه. وينظر البروفيسور «عاطف شنكون» إلى هذا الادعاء في كتابه التطور بشبهة حيث يقول: (لا نملك أي معطيات علمية حول مجيء الحصان من أحياء هذه المتحجرات). ولو فرضنا أن هذه المتحجرات صحيحة فلا بد أنها تعود لأنواع أخرى من الأحياء عاشت في السابق ثم انقرضت، ولا يمكن ربط الحصان بهذه السلسلة. فإن أصرينا على ربطه بهذه الأحياء عند ذلك يظهر أمامنا كما يقول البروفيسور «عاطف شنكون» سؤالان مهمان:

أولًا: لماذا نقص عدد أظافر الحصان من خمسة أظافر إلى ظفر واحد؟ ولماذا تحول من حيوان بطول الثعلب إلى الطول الحالي للحصان؟ لا يملك العلم جواباً لهذا السؤال. وتوجد حالياً حيوانات بظفر واحد وبظفرين وبثلاثة أظافر. وهناك كائنات شبيهة بالثعالب لا تزال تديم حياتها في الظروف نفسها وهناك كائنات بخمسة أظافر لا تزال على قيد الحياة فلماذا قام الحصان إذاً بطرح أظافره الأربعة ليبقى بظفر واحد وبحجم أكبر؟ ولو قيل بأن قوائمه استطالت لضرورة سرعة الجري، وعند ذلك أسألهم: ولماذا لم تستطل قوائم كلب الصيد إذاً مثل الحصان؟ لأن كلاب الصيد تجري بسرعة كالحصان على الأقل وهو أكثر استعداداً للنمو من الحصان، وأكثر حركة منه. فلماذا يكبر الحصان

ويقلل من عدد أظافره بينما يبقى كلب الصيد على حاله؟!

لذا فكما قال «عاطف» فإن هذه المتحجرات الآنفة الذكر حقيقية وعاشت في بعض العهود ثم انقرضت فلا بد أنها أنواع أخرى عاشت في السابق ثم انقرض نسلها.

دخلت في علم الجينات ورأيت أن المراحل الانتقالية هي شرط من ناحية هذا العلم أيضاً وسأتحدث عن الخلية بشكل مفصل في صفحات قادمة. لأنه استناداً إلى مثال الحصان الذي ذكرته لا يمكن أبداً تصور حيوان بحجم الثعلب ينقلب فجأة وبطفرة واحدة إلى حصان! فهذا أصعب من قفز إنسان عشرة أمتار إلى الأعلى دفعة واحدة. إن طفرة واحدة يمكن أن تقضي على الحيوان لذا كان من الضروري وجود مراحل وسطية عديدة تعقب بعضها بعضاً بشكل منتظم والدليل على هذا أن البحوث والدراسات تجري على هذا الخط وضمن هذا الإطار.

أثناء غوصي في عالم البحوث المهتمة في البحث عن المتحجرات وجدت أنه فعلًا يوجد بحوث كثيرة جداً والكثير منها عثر على متحجرات حديثة وعلى متحجرات قديمة عديدة، ولكنهم لم يعثروا على أي متحجرات تبين مراحل الانتقال من حصان بخمسة أظافر إلى حصان بأربعة أظافر ثم بثلاثة ثم بظفرين.. وقد اهتموا كثيراً بالمتحجرات التي تربط الإنسان بالقرد على زعمهم فتكلموا عن متحجرات أمثال Australopithecus و Homo erectus و Neandertal ومتحجرة رجل جاوة ورجل بكين.

لاحظت أن البروفيسور «عاطف شنكون» يتناول هذه المزاعم بكل شبهة في الجزء الأول من كتابه «التطور» فهو يقول:

(إذاً كانت المتحجرة موضوع البحث قد عثر على يدها بعد خمسين

متراً من رأسها، وعلى بعض عظامها في عمق عدة أمتار فمن المشكوك فيه أن تكون كل هذه العظام عائدة لمتحجرة واحدة ولمخلوق واحد، ولا يمكن التأكد من هذا. فمن المحتمل أن بعض هذه العظام تعود إلى مخلوق عاش في حقب قديمة جداً وأن بعضها تعود إلى مخلوق آخر عاش بعده بحقب عديدة. لذا لا يمكن هنا تقديم رأي قاطع).

وقد أفرط التطوريون في رأيي بموضوع البحث عن الحلقة الوسطى بين الإنسان والقرد إلى درجة أنهم تحدثوا عن متحجرة (رجل بلتداون Piltdown man) في سنوات 1912 - 1914 حيث زعموا أنه جد الإنسان الحالي والذي تحدثت عنه في الفصول السابقة. كانت المتحجرة عبارة عن قحف إنسان خمن بأن عمره يعود إلى خمسمئة سنة ماضية ومع فك قرد أورانجتون وبضعة أسنان إنسانية. وتبين في سنة 1953 - 1954 بأن هذه المتحجرة مزيفة تماماً ومصنوعة، أي أن بعضهم قام بتركيب فك وأسنان من قرد من نوع أورانجتون على قحف إنسان، وركبوا بضعة أسنان إنسانية كذلك في الفك ثم قاموا بإضافة مواد كيماوية على هذه الجمجمة لتبدو قديمة جداً. إن مثل هذه التصرفات يجعل من الصعب علينا تصديق الأبحاث المتعلقة بالمتحجرات وهي تشير بل تؤكد إلى أن نظرية التطور خرجت من كونها مسألة علمية وتحولت إلى مسألة أيديولوجية أو عقيدة هدفها إبعاد الناس عن التساؤل عن ماهية الإنسان ومن أين أتى وكيف ومن هو الخالق..

البعد الآخر للمسألة هو: حسب مقال أنثروبولوجي في مجلة ساينس فإن أبحاث علماء البالانثولوجيا تقول إن أقدم متحجرة من هذه المتحجرات تعود إلى ما قبل مليون ونصف مليون سنة، بينما وأثناء تصفحي وبحثي في الموضوع قرأت في موقع بي بي سي لآخر دراسة لعلماء البالانثولوجيا بأنه تم العثور على شاطئ بحيرة رودولف في كينيا

على متحجرة إنسان عاش قبل 2.8 مليون سنة كانت جمجمته كجمجمة الإنسان الحالي.

وقد نشرت المجلة العلمية التركية (العلم والتكنولوجيا) في عددها الواحد والسبعين صورة الجمجمة مع مقالة مفصلة حولها. أي أن الكائن الذي قيل أنه يمثل المرحلة الانتقالية بين القرد والإنسان تحول فجأة إلى حفيد من أحفاده!!

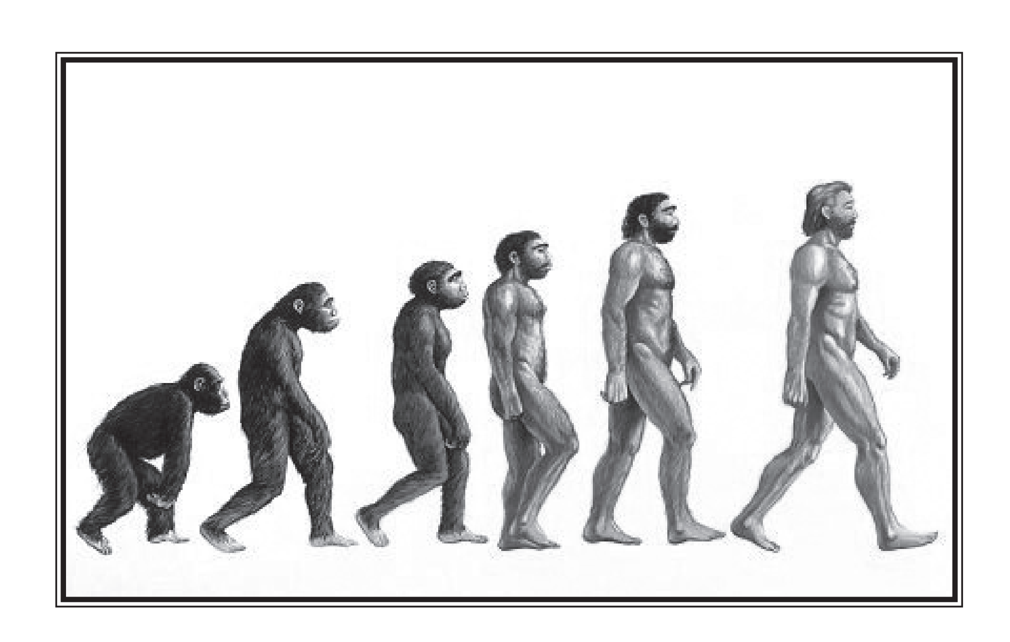
إن تم الاعتراض على طرق قياس الأعمار لأي متحجرة من المتحجرات، انفتح باب الاعتراض على أعمار جميع المتحجرات الأخرى. لذا يجب عدم غض الطرف عن مدى صحة طريقة استخدام الكربون في قياس الأعمار وعلى الطرق الأخرى المستعملة في قياس أعمار المتحجرات. ولكن المهم عندنا هنا هو حقيقة أن الإنسان كان موجوداً على الأرض قبل وجود القرد، أو عاشا على الأقل في العهد نفسه.

3- كائنات بين القرد والإنسان:

لقد تحدثنا سابقاً عن فقرة كانت تضيء على كائنات بين الإنسان والقرد..

لن أطيل الحديث في هذه الفقرة.. حيث أنني أود أن أذكرها من باب المعلومة ليس إلا.

توضح أشكال معينة جنباً إلى جنب في الكتب الدراسية وحتى في «ال تي شورتات» بزعم شرح نظرية التطور. ترى في هذه الأشكال شكل قرد ثم شكل ربع قرد ثم نصف قرد ونصف إنسان ثم ثلاث أرباع الإنسان وأخيراً صورة شخص أوروبي في منتصف العمر.



وكل هذا خداع في خداع. فلماذا تطور ذلك القرد يا ترى ولم تتطور بقية القردة؟ ولماذا ظهر في الأخير رجل في منتصف العمر ولم تظهر امرأة؟ وكيف تم تطور المرأة؟ هل تطور قرد واحد أم تطورت قرود عديدة في الوقت نفسه؟ ولماذا لم تتطور القرود مرة أخرى في الأماكن التي احتشدت فيها القرود بمحض المصادفة وتطورت؟ وأي قسطاس علمي يرضى بأن تتم الإجابة على كل هذه الأسئلة بالمصادفات والفرضيات؟ وأين حرمة العلم؟ وماذا لو كانت كل هذه الجهود تتم باتجاه فكرة الخلق التي تنفي وجود المصادفات في الكون وتقول: إن جميع الدلائل تشير إلى وجود قدرة وعلم وإرادة لا نهائية هي التي خلقت سلسلة الحياة هذه. أليس هذا أفضل وأليق وأكثر منطقية؟!

D) **الطفرات:**

الطفرات هي إحدى نقاط الارتكاز المزعومة لنظرية التطور، لأنها الحل الوحيد أو المنفذ الوحيد لبرهنة تغير الشيء أو انحرافه عن وضعه الطبيعي، وهي الفرضية القائلة بأن التغيرات الحاصلة في شيفرات جينات الكائن الحي عن طريق المصادفات أو عن طريق ظروف البيئة تكون إحدى عوامل التغيير عند الانتقال من نوع إلى آخر. لا مجال للاستهتار في معالجة فقرة الطفرات لأنها الأصعب والأعقد بالنسبة إلي لأنك تحتاج مليون إثبات ودراسة لتبرهن صحة الشيء، أما لتنفيه أو لتبرهن أنه غير طبيعي فإنه يكفي أن تقول إنه طفرة.

إن الكروموسومات الموجودة في نواة الخلية - التي تعد بمثابة مركز قيادة الخلية - تحتوي على الجينات. وكل الخصائص والمواصفات العائدة للكائن الحي موجودة ومسجلة في جينات هذه الكروموسومات على شكل جزيئات D. N. A وهذه الجزيئات بمثابة مخزن جيني للمعلومات وقد خلقت بحيث لا تستطيع حتى من استنساخ نفسها.

فكما يقوم جهاز الكمبيوتر عند الضغط على زر من أزراره بتقديم المعلومات المبرمجة في ذاكرته من قبل وعرضها أمامنا، كذلك تقوم هذه الآلية بتطبيق البرنامج المدمج فيها بكل كفاءة ودون أي نقص أو قصور، بل تقوم بتشفير هذا البرنامج على الدوام. وبواسطة هذه الشفرات تستطيع الحفاظ على خصائص نوعها وتكون حارسة لها عند إصدار الأوامر في مختلف الفعاليات. أي أنه ما من تأثير خارجي يستطيع تغيير هذه الشفرات ولا اجتياز الحواجز والأسوار والموانع التي وضعتها هذه الشفرات. فلا تستطيع الطفرات ولا أي شيء آخر تغيير خط ذلك النوع.

صحيح نحن نعلم بأن مختلف الإشعاعات والمواد الكيمياوية والظروف الأخرى للبيئة تحدث بعض التغييرات في شفرات جينات الأحياء وفي برامجها. ولكن مثل هذه التغييرات الحاصلة في الشيفرات الجينية (الطفرات) لا تستطيع العمل على إنتاج نوع جديد من الأحياء ولا تغيير أي كائن حي من نوع إلى آخر.

على الرغم من كل هذا فإن الداروينيين الجدد يزعمون بأن هذه التغيرات تتلاحق وتتجمع مما يؤدي في النهاية إلى ظهور نوع جديد. ولكن أيكفي عمر أي فرد لحصول كل هذه التغيرات عنده؟ أي أيكفي عمر الفرد ليتحول إلى نوع آخر بهذه التغيرات؟ من الواضح أنه لا يكفي. ولكن سأكون ساذجاً وأفرض بأنه يكفي، فهل هذه التغيرات تكون مفيدة وبمقياس يكفي لتحويله إلى نوع آخر؟ أي أن هذه التغيرات الحاصلة في الفرد تكون من النوع السلبي مثل تشوه الأعضاء أي من النوع الذي يضر بالنسل وقد أيد علم الجينات هذا الأمر. كما أنه لم يتم حصول العكس حتى الآن.

قرأت كثيراً في الأبحاث الخاصة بمرض السرطان ووجدت أن الأبحاث الأخيرة الجارية حول هذا المرض تشير إلى أن التأثيرات الضارة مثل الإشعاعات وتلوث الجو تعد من الأسباب المؤدية إلى تخريب الخلية وتشويهها مما يكون سبباً في حدوث مرض السرطان. ثم إنه لم تتم مشاهدة أي تغيرات من هذا النوع لا في الإنسان ولا في الأحياء المجهرية من العهود السابقة التي تستطيع الأبحاث العلمية الامتداد إليها حتى الآن. ومن هذه الأبحاث الدراسة القائمة على ذبابة الفاكهة «دروسوفيلا» فقد أجرى رجال العلم تجارب على هذه الذبابة حيث قاموا بتعريض أعداد كبيرة من هذه الذبابة إلى العديد من أنواع الإشعاعات والمواد الكيماوية والحرارة الشديدة لإحداث طفرات عليها

وتغيير نوعها، فلم يحصلوا إلا على ذبابات مشوهة وعقيمة وفاقدة لبعض أعضائها كالأجنحة وأرجلها ولم يحصلوا على أي تغيير مفيد لهذا الكائن الحي.

الخلاصة أن التجارب العديدة التي أجريت على أكثر من 400 ذبابة فاكهة أظهرت أنه برغم حصول تغيرات طفيفة عليها، من المستحيل أن يتغير نوعها أو ماهيتها. فقد حدثت تغيرات غير ذات أهمية على ذبابات الفاكهة نتيجة تأثير الشروط والظروف البيئية عليها مثلما يحدث على الإنسان من تغييرات بسيطة من ناحية اسمرار الجلد أو ارتفاع ضغط الدم. وعندما تمت عمليات التناسل بين هذه الذبابات المتعرضة لهذه التغيرات لم يتم الحصول على نسل جديد أي أصبحت هذه الذبابات عقيمة كما أن تشوهات عديدة ظهرت عليها.

إن تدخل الإنسان في الطبيعة لن يستطيع تغيير الحيوانات من نوع إلى آخر، أما في النباتات فيمكن.

وَمن خلال مروري وبحثي عن عمليات التلقيح والتطعيم في الأشجار وجدت أنه من الممكن الانتقال من نوع إلى آخر ولكن يجب التنويه بأن هذا غير ممكن في جميع الأشجار، فأي شجرة ملائمة للتطعيم حسب طبيعة خلقها يمكن تحويلها إلى نوع آخر بالتطعيم ولكن لا يوجد في عالم الحيوان تغيير بهذا المقياس. ولكن يستطيع الإنسان بعملية التلقيح، أي استخدام مني جاموس مثلاً من نوع جيد لتحسين نسل جاموسة أقل منه نوعية.

وخارج هذا النطاق فقد يوجد عملية استثنائية واحدة لا غير، فعملية التناسل والإنجاب بين الحصان والحمار قد يخرج منها نوع جديد ألا وهو البغل، ولكن البغل الناتج من هذه العملية الاستثنائية يكون عقيماً.

أي إن مثل عمليات التناسل التي تتم بين أجناس مختلفة من الحيوان تكون الذرية الناتجة عقيمة فلا يمكن ظهور نوع جديد منها.

ولعل الخالق قد وضع استثناء لكل قانون عام في هذا الكون لكي لا يتعلق الإنسان بهذه القوانين وينسى الفاعل الحقيقي وراءها الذي هو الله.

ولم تنتج من المحاولات العديدة التي جرت على بعض أنواع الأحياء سوى فروقات طفيفة كقصر في السيقان أو اختلاف في الألوان ولكن حافظ كل نوع على نفسه وعلى خواصه وأصله، فبقي الذئب ذئباً وبقي الخروف خروفاً. والتدخل العلمي لا يقلب الذئب إلى خروف ولا الخروف إلى ذئب. وهذا الأمر ليس صحيحاً فقط على هذه الأحياء بل إنه يشمل أعقد الأحياء تركيباً فقد لوحظ مثلاً أن البكتريا والتي هي من أصغر الكائنات الحية تتكاثر بالانقسام كل عشرين دقيقة بالرغم من كونها تصاب بالطفرة بعد 60 ألف جيل من أجيالها ولا يوجد أي فرق بينها وبين أجدادها من البكتريا التي عاشت قبل 500 مليون سنة ولا مع أجدادها البكتريا التي عاشت قبل مليار سنة كما أثبت ذلك علم المتحجرات.

عندما وجد الداروينيون أنفسهم في مأزق من هذه الأدلة التي طرحتها عليهم وطرحها غيري من علماء المتحجرات عليهم من قبل بأنه لكي نقبل بحدوث التطور يجب العثور على الحلقات الوسطى والمراحل الانتقالية بين الأحياء قرروا أن يستخدموا عنادهم في أنهم لا يرون ضرورة لوجود هذه المراحل الانتقالية بين الأحياء ويرون أن الكائن الحي يستطيع القفز فجأة إلى نوع أعلى فيقولون بأنه من الممكن مثلًا أن يخرج طائر من بيضة تعود لحيوان زاحف.!

طبعاً علماء الجينات والكتب الخاصة بهذا العلم وكل ما قرأته

داخل هذا العلم يقول باستحالة قيام أي كائن حي مثلًا بتبديل 1000 صفة وخاصية مرة واحدة. حيث أنني قرأت مقالاً للدكتور «لو كومت دنوي» في إحدى مجلات مكتبة الجامعة يقول فيها «يحتاج الحصان إلى خمس ملايين سنة لكي يستطيع تبديل خمس أظافر بظفر واحد» لذا فإذا أخذنا هذه المسألة في ضوء هذا التكامل التدريجي فإن زعم حدوث مثل هذه الطفرة الفجائية ليس إلا سخف واضح. وإن قيل لي بأنه تغير تدريجياً وعندما بلغ نقطة معينة تبدل فجأة عند ذلك أقول لهم بأن من الضروري حدوث هذا التطور والتغير خطوة فخطوة. فمثلًا يجب لكي يتحول الحصان إلى كائن بظفر واحد وجود حصان بأربعة أظافر ثم ثلاثة ثم حصان بظفرين.

ولا شك أن التغير يجب ألا يقتصر على عدد الأظفار لأن الجسم عندما يقوم بفعالياته فإن كل جزء منه مرتبط بعلاقات وثيقة مع الأجزاء الأخرى. وحتى عندما يندمل جرح في الجسم يمكن ملاحظة اندماله بسهولة لذا فلا يمكن عدم ملاحظة كل هذا التغير الكبير. والخلاصة أن من المستحيل أن يخرج طائر من بيضة زاحف. ولأن تغيراً بقوة مئات الطفرات سيؤدي إلى هلاك ذلك الكائن الحي في لحظة واحدة.

ولو تعمقنا أكثر في علم الجينات لوجدنا أن القيام بمضاعفة عدد الكروموسومات وكذلك القيام بعمليات التناسل بين الأنواع المختلفة يؤدي في الظروف الطبيعية إلى عقم الحيوان الناتج من هذا التناسل (كالبغل مثلًا). ونظراً لأن مثل هذا المخلوق لا تكون أمامه فرصة ليصبح أباً أو أماً لذا نقوم بمضاعفة عدد كروموسوماته إلى الضعف. وكما ذكرت فإن هذا الأمر غير وارد في عالم الحيوان وإن كان وارداً في عالم النباتات.

إن عدد الكروموسومات في الإنسان يبلغ 46 كروموزوماً. أي أن

هذه الكروموسومات هي التي تعين الصفات البيولوجية للإنسان وهي التي تعين ماهيته.

وعلى الرغم من هذا فعندما يتغير هذا العدد ويصبح 45 أو 47 أو 48 كروموسوماً فلا يظهر هناك نوع آخر من الأحياء، بل يظهر إنسان مشوه وغير طبيعي!

أي أن الفرق في عدد الكروموسومات يؤدي إلى تشوهات جذرية. لذا فلو قمنا بمضاعفة عدد الكروموسومات عند الإنسان فلا نحصل على نوع آخر من المخلوقات، بل على طفل بشري ولكنه يموت قبل أو بعد الولادة ولا يعيش وإذا كان التغير في عدد الكروموسومات بمقياس لا يؤدي إلى الموت فالنتيجة تكون ظهور العاهات والتشوهات والأمراض. إذاً التلاعب في عدد الكروموسومات في عالم الحيوان وفي عالم الإنسان لا يجلب سوى الكوارث أي أن الطفرات تؤدي إلى نتائج ضارة وتأثيرات مميتة عند الأحياء لا إلى تحول القرد إلى مخلوق عظيم.!!

يقول العلماء في آخر دراسة لهم في معهد هارفرد للعلوم الجينية بأن رص نسبة من الجينات لا يعني حل شيفرات خريطة الجينات. كما يسيرون بأنه لا يمكن بهذا قراءة «كتاب الحياة». كما يذكرون بأن النجاح المتحقق حتى الآن في هذا الموضوع يساعد فقط في تشخيص بعض الأمراض الجينية لأن معرفة شيفرة جين من الجينات لا يعني معرفة البروتينات التي يقوم هذا الجين بإنتاجها في الجسم، ولا معرفة أي الجينات ستتأثر بهذا البروتين أو تؤثر فيه فهذا الموضوع ليس واضحاً حتى يومنا هذا. إن المعلومات الجينية موضوعة بشكل مزدوج، وشيفرات الأحماض الأمينية أكثر من شيفرة واحدة وهذه المعلومات الجينية مثل اللغة، وتتم ترجمتها بإنتاج بروتين جديد **فإن لم تقرأ بشكل صحيح** فلا قيمة

لهـا. لذا كان مـن الضروري تحول هـذه المعلومـات بشكل صحيـح وبالمقدار الصحيـح وفـي الوقـت المناسـب إلى بروتينـات عـلاوة علـى ضرورة وجود هـذه المعلومـات مـن ناحيـة استمـرار الحيـاة والصحـة.

E) **الانتخـاب الطبيعـي:**

عندمـا وصلت إلى الانتخاب الطبيعي فـي النظرية وبعد أن جمعت كل المراجـع وقـرأت كل الدراسـات وتصفحت كل الاتجاهات التـي توصلني إلى الحقيقـة، وقفـت قليـلًا عندهـا وصراحة ذهبـت إلى مستشـاري الأكاديمي فـي الجامعـة ليساعـدني قليـلًا لأننـي عانيـت من ضعـف في التركيـز بهذه القضية.. أقرؤها كعلم ولكن أشم بين سطورها الكثير من روائح الاستهداف السياسـي أو الدينـي أو حتـى سيكـولوجيـا الحيـاة بـين الـدول.. لم أشعر أنـه علـم يخص الإنسان أكثر من أنـه يخص سياسـات كبيرة جداً لحركات كبـيرة جـداً تتحكـم بهـذا العـالم المليء بالأسـرار..

دخلـت إليـه وقلـت لـه: أستاذي أريـد منـك أن تساعدني فـي كتابي الـذي قـررت أن يكـون مشـروع رسالـة الدكتـوراه.

فأجابنــي فرحـاً: بالطبـع يـا بنـي علـى الرحـب والسعـة..

فأعطيتـه فكـرة عـن الكتـاب بشـكل عام وعـن كيفية دخـولي في كل ثغـرة بنظريـة التطـور والبحث عـن الحقيقـة لنشرها داعياً أن هدفـي ليس هـو نفـي نظريـة التطور وحسـب بل تبديـل فكرتها مـن أن الإنسان جاء من الصدفـة إلى إنسـان جـاء مـن خالـق ولا يمكن لـه أن يأتي مـن لا شيء.. فابتسـم المشـرف وقـال لي إنك تكتـب عن شـيء بمثابة قنبلـة يدوية.. فأي خطـأ يمكـن أن يكـون سنداً قـوياً لنظريـة التطور فهـي تعتمد علـى أن يكون النافـي غـير منطقـي.. فقلـت له:لا تأبـه يا أستـاذ.. سأحـاول أن أضع كل

حرف مكانه وكل كلمة في جملتها وكل جملة في سطرها ولكني أعاني فقط من الانتخاب الطبيعي إذ أشعر أنه لا يخص العلم بل هو سياسة ما لحركة الحفاظ على سياسات الدول الكبرى على الأرض..

فعندها ضحك وقال لي.. اسمع يا بني: إن كنت تريد النجاح والشهرة لكتابك وانتشاره على أوسع قدر ممكن من البلدان والمكتبات فلا تأتي بذكر الانتخاب الطبيعي وحاول المراوغة عن هذه النقطة.

ولأنني قد قررت التحدي بكتابي هذا وصممت على أن أكون داروين ولكن بطريقتي الخاصة فقد خرجت من غرفة مشرفي الأكاديمي وأنا متشوق كل الشوق لأن أتطرق إلى فقرة الانتخاب الطبيعي بكل ما أكرمني الخالق به من قوة وعلم وإرادة وذهبت إلى المكتبة لأجمع كل الكتب التي يمكن لها أن تساعدني في هذا الموضوع وزرت صفحات الإنترنت وبدأت بتجميع كل ما يمكن أن يكون سلاحاً في يدي لأواجه هذه الفقرة التي تعد العمود الفقري بالنسبة للتطوريين والقلب النابض لأساس النظرية كلها..

الانتخاب الطبيعي هو إحدى نقاط الاستناد التي يستند إليها التطوريون، والانتخاب الطبيعي: «يعني أن الأحياء التي لا تستطيع مقاومة المصائب الطبيعية المختلفة وكوارثها كالسيول والزلازل تنقرض وتزول من مسرح الحياة، ولا يبقى هناك إلا الأحياء القوية المقاومة للظروف الطبيعية المختلفة».

وأنا لا أجد أي علاقة لهذا بالتطور، ولا أدري بأي نسبة يمكن أن يكون مرتبطاً به حتى. لأنه لا يوجد أي دليل أو أمارة بأن أي نوع من أنواع الأحياء قد انقرضت، إلا متحجرات هذه الحيوانات المنقرضة والتي لم تظهر للوجود كأنواع جديدة، كما أنه يوجد داخل كل نوع من الأنواع على الدوام أفراد أقوياء وأفراد ضعفاء و هم يعيشون جنباً لجنب.

إن تغذي بعض الأنواع باللحم يؤدي إلى تشكل سلسلة من الغذاء في الطبيعة، وبهذه الواسطة يستمر التوازن البيئي في الطبيعة بكل كماله. ولو لم يحدث هذا، أي لو لم يكن هناك في قطيع الغزال أي غزال يستطيع الأسد أو النمر صيده، أو لو كان جميع أفراد نوع ما أقوياء، لكانت النتيجة أن يموت كل أنواع الحيوانات المفترسة التي تتغذى على اللحم، ولتكاثرت الحيوانات الأخرى على حسابها، ولفسد التوازن البيئي من أساسه. لذا فإن مشاهدة مثل هذه الحادثة وكون الحيوانات الضعيفة طعماً لأحياء أخرى هو من أجل بقاء هذه الأحياء.

انطلاقاً من الذي ذكرته يقترف التطوريون والذين يؤلهون الطبيعة جناية كبرى عندما يأخذون مثالًا واحداً أو حادثة واحدة ويجعلونها شاملة لجميع حياة الأحياء فيصورون الحياة وكأنها عبارة عن صراع وعراك. فهم يعدون الغاية الوحيدة من الحياة هي محاولة الأحياء الاستمرار في الحياة، والحصول على الغذاء من أجل تحقيق هذه الغاية. وعندما يقوم التطوريون والماديون وعباد الطبيعة بتقييم حياة الإنسان أيضاً على نفس النحو فهم يقدمون ذريعة للأقوياء للبقاء على حساب الضعفاء، ويرون في هذا حقاً طبيعياً لهم..! كما يقدمون الحياة وكأن الغاية الأساسية منها هي الأكل والشرب والتناسل.. وهذا طبعاً في رأيي يؤدي إلى قطع التعاون بين الناس وبين الأمم والشعوب، ويجعل استغلال الإنسان شيئاً مشروعاً ولا غبار عليه، فينزعون عن الإنسان جميع قيمه السامية، وينزلون به إلى درك الحيوان بل أسفل منه وأضل. لا أريد هنا أن أبعث برسالة سلام إليكم ولا أريد الانخراط بموضوع الإنسانية والابتعاد عن المجال العلمي للموضوع ولكن الصراع في الحياة هو شيء ثانوي وفرعي. والأصل هو التعاون، فأعضاء جسم الكائن الحي في تعاون مستمر فيما بينها. وتتعاون الشمس بضيائها

وحرارتها مع الهواء والماء والتربة لإنتاج الثمار للإنسان أو للحيوان حسب أجناسها وأصنافها. أي أن عناصر هذا الكون كلها تتعاون في إنبات النباتات على الرغم من أنها للحيوانات وللإنسان، وتسخر الحيوان من أجل الإنسان، كما يقوم الإنسان بنجدة النبات والحيوان ويقدم جهوده من أجل الحفاظ عليهما - إن كان على وعي بوظيفته في الأرض كإنسان -. انطلاقاً من هذا نرى أنه قد وقعت على الإنسان وظيفة القيام بتحويل الأرض إلى ساحة تعاون وأخوّة، وليس إلى ساحة صراع وحرب. ولكن التطوريين يتناولون هذه المسألة بشكل معاكس تماماً، لذا لا يمكن القول أنهم لا يتحملون أي مسؤولية عن الانقلابات وعن الصراعات والحروب التي حدثت ومازالت تحدث في العصرين الأخيرين التي كانت بمثابة كوارث دولية وفواجع عظيمة.

ينظر التطوريون إلى هذه الكوارث وإلى أمثالها من الاستعمار الدولي، وتجارة الرقيق والتميز العنصري وسيادة القوة على الحق وكأنها «المسيرة الطبيعية» للتاريخ. وبهذا يعطون الحق والشرعية لها بوجه من الوجوه. لذا نرى أن «كارل ماركس» مؤسس الشيوعية الذي وضع نظريته «الماركسية» على هذا الأساس يدين بالكثير والكثير جداً لداروين، فبقراءتي لنظرية «كارل ماركس» وجدت أنها تقوم على صراع الطبقات وهو ما يقابل الصراع من أجل البقاء في نظرية التطور.

وهنا أكون قد أجبت على إشارات استفهام كبيرة كانت تدور في رأسي ومنها، أنه لماذا كل الشيوعيين الأكثر مادية هم على ارتباطٍ بنظرية التطورومدافعون عنها؟! على العلم أنها نظرية علمية وليست ذات أبعاد سياسية أو هادفة أو أيديولوجية دينية!.

إن جميع هذه العوامل والأسباب الكامنة وراء الإصرار للإبقاء على نظرية التطور واقفة على قدميها في دنيا العلم، حيث قلبت هذه النظرية إلى عقيدة وإلى أيديولوجية مقدسة. وكم هو غريب ومتناقض أن نرى هؤلاء وهم يزعمون أنهم أبطال الحرية والمدافعون عن حقوق الإنسان وحقوق المضطهدين كالعمال والمسحوقين والعاطلين عن العمل..!

إن الكوارث الطبيعية لا تقضي فقط على الضعفاء من الأحياء، بل تقضي حتى على أقوى الأقوياء منها. فمثلاً نرى أن تسونامي ضرب الآلاف من الأحياء الضعيفة منها والقوية.

ثم أنه على الرغم من هذا الادعاء فإننا نرى في كل عهد من عهود التاريخ وفي كل سنة وفي كل موسم ويوم أن أضعف الأحياء يعيش مع أقوى الأحياء جنباً إلى جنب. فنرى الحوت وهو يعيش مع أصغر الأسماك ومع سمك القرش، ونرى في الجو النسر مع اللقلق ومع العصفور والحمام، وفي البر نرى النمل والأرانب والأسود والفهود والغزلان يعيشون معاً. حيث نرى أن التوازن البيئي والطبيعي مستمر بدرجة الكمال منذ ملايين السنين دون أن يصيبه أي خلل. بل إن الأغنام والحمام والغزلان وغيرها من الحيوانات الضعيفة غير آكلة اللحوم وغير المفترسة تتكاثر بصورة أقل من غيرها، وتضع مولوداً واحداً أو مولودين فقط في السنة، ومع ذلك نراها أكثر عدداً في كل مكان من الحيوانات المفترسة التي تتكاثر أكثر منها.

إذاً فليست هناك عملية إبادة، بل هناك عملية خدمة للحياة. لذا لا يمكن البحث عن الانتخاب الطبيعي بالمقياس الذي يدّعي التطوريون وجوده في الطبيعة، وليس هو بالقانون الطبيعي الذي لا يمكن رده أو الوقوف في وجهه في الحياة الاجتماعية للإنسان والأمم ولا ظاهرة اجتماعية سائدة.

إن أعداد الأحياء الضعيفة بدءاً من الأحياء المجهرية إلى النمل والنحل ومروراً بالغزلان والأسماك أكثر بكثير من أعداد الأحياء القوية جداً.

ولننظر إلى ظروف الحياة عند مجتمعات العالم الثالث فعدد الأبناء في كل عائلة أكثر من عدد أولاد العائلات الإسكندنافية «مجتمعات العالم الأول» التي تعيش في ظروف مثالية. كما تقوم الحيوانات الضعيفة جداً والتي تمتلك أجساداً رقيقة وغير قوية بالحفاظ على أنفسها بطرقها الخاصة.

كل هذا أدى إلى الحفاظ على التوازن البيئي من الأمس حتى اليوم. وكل هذه مسائل قررها العلم ولاحظها ولست أنا، وتعد ضربات قوية على رأس هذا الذي يسمى الانتخاب الطبيعي.

قرأت في إحدى كتب الأنثروبولوجيا أن Neoplina عاش قبل 300 - 400 مليون سنة وأنه انقرض بسبب الانتخاب الطبيعي، وأن coelacanth عاش قبل سبعين مليون سنة ثم انقرض، وأن Crinoid عاش قبل 565 مليون سنة ثم انقرض، وأن Limulus عاش قبل 225 مليون سنة ثم انقرض، وأن Gunt Flint عاش قبل مليوني سنة ثم انقرض وذلك كما ذكرت في الفصل السابق. ومن الممكن طبعاً عد المئات من هذه الأحياء التي زعم التطوريون أنها انقرضت قبل ملايين

السنين. ولكن تبين أنها جميعاً تعيش حالياً وأنها تشبه أجدادها تمام الشبه دون أي تغيير. لذا فهناك شواهد على أن نظرية التطور لا تملك أي مصداقية لا في الأرض ولا في السماء.

كل ما أشاهده في حياتي الآن ليس عبارة عن جلجلة أصوات الأقوياء وأنين أصوات الضعفاء وهي تموت.. ومع أنني يمكن أن أعثر على أمثلة من هذا الأمر في التاريخ الإنساني من حين لآخر، إلا أنه عندما يسود الحق نرى ظواهر الرحمة والشفقة من الأغنياء نحو الفقراء والضعفاء ونرى الشكر من الفقراء للأغنياء.

والخلاصة أن الانتخاب الطبيعي ليس إلا فرضية ضعيفة، وواهنة ولا أساس لها من الصحة. فالمشاهدات العلمية لا ترينا قيام البيئة أو الظروف المناخية برمي الأحياء الضعيفة خارج النوع ولا قيام الأحياء القوية بامتلاك حق الحياة وإبادة الضعفاء.

ثالثاً: معالجة العقل:

الدماغ الإنساني هو في الحقيقة ما يميز الجنس البشري كتركيب مادي طبيعي، تطرقت نظرية التطور إلى موضوع العقل بشكل سريع وكأنه عضو عادي مثله مثل أي عضو في جسم الإنسان، ولهذا فإنني سأقوم في معالجته بنفس الطريقة، ربما لا يختلف الإنسان كثيراً في بنية جسمه عن الحيوانات القريبة الشبه به ولكنه يختلف اختلافاً هائلاً عنها في طراز سلوكه، فالاختلاف التركيبي بينه وبين القردة العليا في معظمه اختلاف في الدرجة وليس اختلافاً في النوع، ولكن الاختلاف كبير وجذري في السلوك، ويكمن سر هذا الاختلاف وما نجم عنه من فروق واضحة في

الدماغ الإنساني، ذلك أن هذا الدماغ ليس قادراً على تسلم الإثارات الحسية فحسب، بل وعلى تحليلها أيضاً، كذلك على خزنها في الذاكرة ثم على إعادة تركيبها مع بعضها لتتحول بعد ذلك إلى قائمة طويلة من أنماط السلوك.

ولو سلمنا جدلاً بنظرية التطور فإننا سنجد ما عبر عنه أحد العلماء بقوله (إن ما هو مؤكد تماماً أن الإنسان الحديث لا ينتسب انتساباً وثيقاً إلى أي نوع من الرئيسيات الباقية على قيد الحياة، والسلف المشترك الأقرب للإنسان والقرود ربما كان قد مات قبل حوالي ثلاثين مليون سنة، ولذلك فإن الإنسان الحديث والقرد الحديث يفصل بينهما حوالي ستين مليون سنة من التغير الارتقائي.. إننا لسنا محض قرود في أجسادنا، ومن المؤكد أننا لسنا محض قرود في عقولنا، ولو أردنا الدخول أو حتى التفكير في طريقة عمل الدماغ فهو بحد ذاته معجزة لا تكفيه صفحات ولا أقلام لكي نغطي حجم وعظمة التقنية التي يقوم على أساسها.. فكيف لنا أصَلًا أن نجادل ونعالج من أنه هو عبارة عن تطور عن شيء كان حيواناً..!

رابعاً: معالجة الروح:

في هذه الفقرة لن أطيل الكلام ولا التحري... فالروح من المواضيع التي أعتبرها أنا أنها من المسلّمات...

فكما لاحظنا أن الكتب والأبحاث والمخطوطات التي تتحدث وتحاول تفسير تطور بنية الإنسان «العضوية» يصل عددها إلى المئات وحتى الآلاف ومنها هذا الكتاب الذي بين أيديكم، و ما زال العلماء يجتهدون و يعملون لأجل هذا التفسير و بارك الله فيهم، ولكن عندما نتوقف عند الروح... الروح المنفوخة في هذا الجسد العضوي لنتحراها و ندرسها و نفسرها، ترى الآية تختصر عليك كل ما ربما ستقوم

بـه من بحـث وذلك فـي قوله تعـالى: (وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡـرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيـلٗا) [سـورة الإسراء، الآية: 85] صـدق الله العظيم. أي أنـه علـى العلمـاء الذيـن خرجوا عـن العمـل لنظريـة التطور مـن أنها علميـة وليسـت أيديولوجيـة لاستخدامهـا فـي شؤون إنـكار أو تأكيد الخالق، عليهـم أن يعملـوا جيداً علـى موضوع الروح و حتى لـو تم تأكيد وإثبات أن الإنسـان قـرد متطـور بكامـل الإثباتـات العلميـة المنطقيـة.

فهـذا الإنسـان لا يمكـن أن يكون عضـوياً بلا الروح، وهـذا يعني أنه لا يمكـن إثبـات تطـور هـذا الإنسـان عضويـاً دون تغطيـة موضـوع الروح، كيـف تطـورت؟ ومن أين جـاءت؟ والتـي هـي أساسه أصـلًا ليكـون إنسانـاً وليس جمـاداً!

خامساً: معالجة الظهـور التلقائـي «الانفجـار الكبـير»:

في هذا الفصل لا يمكن فصل المعالجة عن الدعوة إلى خالق، فمعالجة ونفـي الظهـور التلقائـي أتوماتيكيـاً تؤكـد علـى وجـود خالق، فـإذا تم نفي ظهـور الأشيـاء تلقائيـاً، ألا يعنـي عكس ذلـك أي ظهورها بـإرادة شيء ما، أحـد مـا..؟ لذافإن دمج المعالجة مـع الدعوى جـاء تلقائياً في هـذا الفصل..

شاعـت في الآونـة الأخيرة مسألـة الانفجـار الكبير الذي يتـم العمل عليـه في النرويج لإثبات أن الحرارة والانفجـار التلقائي له علاقة وثيقة في إنشـاء الكـون ومن ثم خلـق الخلايـا كنتيجة لهـذا الانفجار وبعدهـا لتظهر الكائنـات.. وقـد تقصدت أن أخصـص لهذا البحـث فصـلاً مستقلاً، فهو لا يتعلـق بالتطـور إنما يتحـدث فقط عن أخطر وأعقـد سؤال فاجأ الداروينيين ألا وهـو مـن أيـن ظهـرت المخلوقـات أصـلًا؟

الكائنات تطورت نعم، ولكن كيف نشأت هذه الكائنات من نقطة الصفر..؟! وجاء جواب هذا السؤال بما يدعى الانفجار الكبير وقد تبنته الحكومة النرويجية اليوم في أكبر عملية وتجربة حديثة لتأكيد نشوء الكون من الفراغ.

في كل شهر أدخل إلى مراجع معهد البي بي سي للعلوم والتكنولوجيا إذ لا يكاد هذا المعهد يخلو في كل فترة من إذاعة تقرير جديد حول الانفجار الكبير وأنه تم الانتهاء من تصميم المكان الخاص لإنشاء هذه التجربة والذي يمتد إلى 25 كم حيث سيتم إطلاق جسيمات كثيرة في هذه المساحة بسرعة خيالية تصل إلى سرعة الضوء وما إن ترتطم هذه الجزيئات ببعضها البعض حتى ينشأ لدينا مادة ومخلوقات ذات خلايا حية. طبعاً أنا أولي احتراماً لهذه التجارب وللعلماء الذين يحاولون إظهار هذا، فبإثبات هذه الفرضية نكون قد قضينا على أي خطأ موجود ضمن نظرية التطور من أن يمكن للمصادفة دور في خلق الكائنات. عتبي على سياسات الدول التي تمنع تجريب هذا الانفجار على العلن وأن كل ما نستطيع معرفته هي أخبار وتقارير من داخل هذا المكان دون النظر أو مشاهدة حتى ما يحدث أو كيف.. أعتقد أن موضوعاً بهذه الحساسية يجب أن يكون معروضاً للعامة لكي يفهم الناس ما يجري في الداخل دون التردد إلى مسائل الشك بالتزوير والتحريف.

هذه التجربة الخيالية (الانفجار الكبير) تعتمد على الحرارة.. أي أنها تدعي بأن الحرارة الناتجة من التصادم بين الجزيئات هي نتيجة انفجارات صغيرة وبالتالي لو أخذنا هذا الانفجار على مستوى كبير جداً لوجدنا أن هذه الحرارة عبارة عن مواد نشأت من اللاشيء ولربما هكذا جاء كوكبنا (الأرض) نتيجة انفجار حصل في الشمس الكبرى ومن

ثم تجمدت هذه الأجزاء لتتحول فيما بعد إلى كواكب حجرية ولظروف معينة مشابهة أيضاً قد ظهرت الخلايا ومن ثم تطورت لتتشكل لدينا كائنات بعدد لا يحصى.

انطلاقاً من هذا الادعاء غطست في عالم الكيمياء والدراسات لأبحث في عالم الحرارة لعلي أجد ما ينفعني في إفادة هؤلاء العلماء فربما تكاليف هذه العملية لا تساوي ما سوف يصلون إليه لأن المنطق لا يحميها والله أعلم.

وجدت في القانون الثاني للديناميكية الحرارية (الثرموديناميك) الذي أصبح معروفاً من قبل الكثيرين نفياً لأزلية المادة. إن القانون الأول للديناميكية الحرارية هو حول حفظ الطاقة. أما القانون الثاني فهو قانون كارنوت المشهور وحسب هذا القانون فإن الجسم الحار يبعث الحرارة حواليه حتى يأتي يوم تنتهي فيه هذه الحرارة.

كما أن مصادر الضوء والطاقة تبعث الضوء والطاقة حواليها حتى يأتي يوم تتساوى فيه الطاقة في جميع أرجاء الكون فيقف انتقال الطاقة. وهذا وإن كان لا يعني فناء الطاقة، إلا أنه يعني الموت ويعني زوال الزيادة والنقصان في الكون.

وضع كارنوت هذا القانون نتيجة مشاهداته وتجاربه عندما كان يغلي الماء في بيته، وعندما كان يلاحظ حرارة مدفأته. ثم تم توسيع تجاربه هذه وربطها من قبل كبار العلماء بنظام معين، ويتم اليوم تدريس وتعليم هذا القانون باسمه.

لا يمكن اليوم ذكر شيء أكيد حول تأثير الديناميكية الحرارية الكلي في الكون. ولكن يمكن القول بأن الكون ليس كتلة واحدة صلدة، بل يتألف من أجزاء. وما يجري على جزء منه يجري على الكل فيه. وقد دلّت التجارب والمشاهدات في هذا الميدان بأنه إن تقم القيامة قبله بسبب من الأسباب، فإن القيامة الناتجة عن قانون الثرموديناميك ستقع حتماً، أي ستنفد الطاقة في الكون وينهار النظام فيه إذ إن العلماء يقولون في هذا القانون أنه يشير إلى أن الحرارة تنتقل من الجسم الحار إلى البارد وأن هذا الانتقال يستمر حتى تتساوى درجة الحرارة بين الجسمين. فإن طبقنا هذا القانون على الكون نرى أن النجوم ستستمر في نشر الضوء والحرارة حتى تتساوى الحرارة في أرجاء الكون، مما يؤدي إلى توقف انتقال الحرارة والطاقة وهذا يعني موت الكون حرارياً.

إذاً لا مكان للأزلية في هذا الكون، فالتطوريون والشيوعيون والملحدون الذين يؤمنون بالأزلية عليهم دراسة الفيزياء والكيمياء أكثر من ذلك للاقتناع من أنه لا أزلية في هذا الكون.

مروراً بالسيد «إنشتاين» فإنه يذكر بأن المكان بالمقياس الصغير يتألف من الذرات، وبالمقياس الكبير من النجوم. وفي شمسنا التي هي نجم من هذه النجوم يتحول 564 مليون طن من الهيدروجين إلى هيليوم في كل ثانية، وهكذا تنشر حواليها طاقة كبيرة بشكل ضوء وملايين السعرات من الحرارة ويصل جزء بسيط من هذه الطاقة إلى الأرض وإلى جميع المنظومة الشمسية ويتألف الكون من أمثال هذه الشموس. وفي يوم من الأيام ستنفجر شمسنا بقوة لا مركزية انفجاراً مرعباً جداً عندما ينفد وقودها، تعقبه حركة انكماش مركزية وتقلص. أي لا تستطيع بعده مد أسباب الحياة للأرض، أي ستكون القيامة قد قامت وبما أن

الكون يتألف من أمثال هذه الشموس كلبنات أساسية له فلا يمكن تصور أزلية هذه الشموس التي تتجه الطاقة فيها إلى النفاد. والشيء الأزلي في اللغة لا يدخل تحت دائرة المكان أو الزمان لذا لا يتعرض إلى النقصان وإلى النفاد ولا يحصل عنده أي تغير مهما كان ضئيلاً بينما نرى أن المادة والعالم المادي في تغير مستمر ويتعرض للانحلال والتفكك لذا فهناك بداية للمادة ونهاية لها، وهي محكومة بقيود الزمان والمكان وكل ادعاء خارج هذا يعدّ ادعاء وفرضية لا نصيب لها من الصحة.

ويعترف داروين نفسه في نظريته بعجزه في هذا الموضوع وضعفه ويقول: (نظراً لأنني لم أكن موجوداً في العهود التي عاشت فيها هذه الأحياء شعرت بضرورة تقوية هذه المسألة ببعض الفرضيات).

والفرضيات في اللغة تعني أنها تستند إلى بعض المعلومات الأولية وتعني آراء ووجهات نظر لم تتم تجربتها فكما قدم داروين فرضيته هذه يمكن لي أنا أيضاً أن أقدم فرضية بأن إنساناً استطاع - بفضل حركة ما - أن يقفز عشرة آلاف متر ولم يحدث له شيء عندما سقط! فهذه أيضاً فرضية، وإن اعترضتم عليَّ وقلتم بأن الإنسان الذي يقفز عشرة آلاف متر سيموت من قلة الأوكسجين فأقوم بتقوية فرضيتي فأقول: (أنتم تتحدثون عن الشروط الحالية، ولكن الشروط كانت مختلفة في عهد من عهود الأرض لذا تيسر وقوع هذا الأمر)..

وإذا كانت فرضيتي هذه غير علمية ومجرد زعم فلا يوجد هناك فرق في هذا الصدد في ادعاءات نظرية التطور أو في الداروينية. إن التطور فرضية تقوم بتكذيب جميع القوانين السارية الأخرى في الكون وفي الحياة، وتقوم بملء جميع الثغرات والفجوات الموجودة فيها بفرضيات أخرى.

البعض هنا سيقول لي نحن نعلم خطأ نظرية التطور وأنه لا مكان لها في علم اليوم فعندها سأطرح عليهم سؤالاً وهو: أنت تعلم وعلى يقين من أن الإنسان ليس صدفة وإنه ليس من تطور وفراغ ولم تتساءل يوماً إذاً من الذي يقوم بكل هذا التنظيم وكيف؟!!

إن العقل البشري لمجرد اقتنع أن نظرية التطور هي نظرية غير علمية ولا مكان لها في عالم المنطق فإنه بهذا يقول حقاً بأنه هناك من يقوم بعمليات التنظيم في هذا الكون العظيم من حركات النجوم والكواكب إلى المعجزات القائمة بتنظيم جسم الإنسان والولادة وانتهاءً بتناسق الطبيعة والحياة..

ولكن للأسف البعض مِنَّا متشبث بالنظرية ولا يرضيهم أن يكونوا طرفاً محايداً أي «عدم الإيمان بالنظرية ولكن دون التساؤل عن البديل».. بل يؤمنون بها وكأنها حقيقة علمية ويحاولون إبقاءها واقفة على قدميها مستندين إلى تجربة ميللر ويذكرون بأن الظروف التي كانت سائدة في الأرض في عهد من العهود السابقة أدت إلى تراكم البروتينات في البحار وأنه نتيجة للتفاعلات الكيميائية التي حدثت ظهرت الأحماض الأمينية، وقد حدثت كل هذه الأمور تلقائياً كما يزعمون.

قرأت اعترافاً جريئاً للعالم الروسي «أوبرن» حيث اعترف في مجلة نيوز بيبر الأميركية بعد عشرين سنة من المحاولات في المختبرات الكيميائية الحديثة لصنع خلية حية قائلاً: (من المستحيل صنع خلية حية من المواد الكيميائية حتى في أرقى المختبرات الكيميائية وأكملها)، ولكن التطوريين لا يعيرون اهتماماً لهذا الاعتراف.

كنت أشاهد على قناة «ناشيونال جيوغرافي» برنامجاً حول الأرض فلفت انتباهي أن وجود الحياة على سطح الأرض مرتبط بتوازنات عديدة وشروط دقيقة. إذ يجب توفر جميع الشروط اللازمة للحياة في سطح الأرض فنحن نعيش على كرة أرضية تبعد عن الشمس 149.5 مليون كم. وحتى هذه المسافة لا يمكن أن تكون نتيجة مصادفة أبداً ومحور الأرض يميل بمقدار 23.5 درجة. ومقدار الميل هذا يشكل أهم عامل في تشكيل الفصول ولا يمكن له أبداً أن يكون صدفة.! كما أن الغلاف الجوي المحيط بكرتنا الأرضية يتألف من 21% من الأوكسجين من مجموع الغازات المكونة لهذا الغلاف، ولا يمكن تفسير وجود هذه النسبة المثالية بالمصادفة أيضاً.

يقول «جيمس جيتر» في مقال كتبه بجريدة تايمز الأميركية حول هذا الموضوع:

(لكي تأخذ الأرض وضعها الحالي عن طريق المصادفات فعليك أن تأخذ جميع رمال الكرة الأرضية في يدك ثم تنشرها. إن احتمال أن تكون ذرة من هذه الرمال الشمس والأخرى الأرض والأخريات الأشياء الموجودة على الأرض كل منها في موضعها الصحيح، هي نفس نسبة احتمال أن تصل الأرض إلى وضعها الحالي عن طريق المصادفات).

لا ينتهي موضوع ظهور الحياة على الأرض ووصولها إلى وضعها الحالي بكون الأرض على بعد 149.5 مليون كم عن الشمس. فهناك مسألة الكثافة في الغلاف الجوي وتصفيته للإشعاعات الشمسية والكونية، ومسألة إحراقه للشهب والنيازك و مسألة سماكة القشرة الأرضية زيادة ونقصاناً من ناحية ابتلاعها الغازات،فعلم الجغرافيا يشير اليوم إلى أن سماكة قشرة الأرض مناسبة جداً فلو زادت سماكة القشرة الأرضية عن

الموجود حالياً لامتصت نسبة كبيرة من الأوكسجين مما يحول دون ظهور الحياة على الأرض. ولو قلت منها السماكة لزادت نسبة الزلازل وشدتها.

لو نظرنا فقط إلى التعاون بين النباتات وعناصر الطبيعة على الأرض من حيث أن النبات يطلق ثاني أكسيد الكربون في الليل ويستهلكه في النهار وعملية التركيب الضوئي الضرورية للإثمار ووجود برنامج في بذرة التفاح يساعد على تحول هذه البذرة إلى تفاح وإلى نمو البذرة وتحولها إلى شجرة وإلى ظهور الأوراق وتفتح البراعم عن الزهور مكونة الثمار. وإلى جانب هذا نرى وجود تعاون كامل بين هذه البذور وبين الشمس والماء والهواء.. أهذا كله يعمل مصادفة!

إن كنت رمادياً (غير مقتنع بنظرية التطور ولكن لا تملك بديلاً عنها من خلال إيمانك بخالق ما، أي أنك من جماعة «لا أدري») وقلت لي لا ليس من المعقول أن يكون مصادفة.. فأسألك إذاً أليست هذه العمليات في الأرض والحياة تتطلب آلية مذهلة وعلماً وإرادة وشعوراً وقدرة؟!

كنت أكتب هذه السطور وأنا أعلم أنه قد يرد من حضرتكم الاعتراض الآتي: إن العلم لا يستند إلى العقيدة أو الإيمان، بل يستند إلى المعطيات الموضوعية لكي يهيىء المستقبل وينتج التكنولوجيا. وأنا أقول حسناً!..

إن الوجود يوجب بشكل واضح وجوب وجود شعور وإرادة وتخطيط وعلم وعناية وقدرة. وكل هذا يشير إلى أدلة لا حصر لها حول وجود خالق ما يتحكم بهذا كله، لذا فأي كسب نكسبه للعلم إن ربطنا منشأ الوجود بالمادة أو بالطبيعة أو بالمصادفة أو بالظهور التلقائي أو بغيرها من الخرافات؟ وأي خسارة للعلم إن قبلنا بحقيقة وجود خالق ثم استمرينا بجهودنا العلمية؟

هل نستطيع الإجابة على كل هذه الأسئلة بإجابات متماشية مع روح العلم؟ أم نتهرب من الإجابة ونقول مثلما يقول بعضهم: «لقد حصل التطور وإن كنا لا نعرف كيف حصل، ولا حاجة هناك لإثبات هذا الأمر؟!» أترضونها في جامعاتكم هذه؟ هل يرضى أهل الجامعات المذكورة في التقرير في بداية الكتاب بأن يتهربوا ويكتفوا بجملة «لقد حصل التطور وانتهى ولا نعلم كيف؟!» وهم الذين وزعوا العلوم على البشرية؟

إن وجود الشفرات في أجساد الكائنات الحية اعتباراً من أصغرها إلى أكبرها منذ البداية ووجود تخطيط رائع ومدهش في جزيئات الـ DNA والـ RNA هذا التخطيط الذي يوجه وظائف الكائن الحي اعتباراً من أصغر وحدة في الكائن وأبسطها إلى أعقدها، والذي يعمل بنظام رائع متبعاً سلم المسؤوليات والتخصصات وباذلًا خدماته للكائن الحي يجعل من المستحيل إيضاحه بالمصادفات..

وإن كان من المستحيل إيضاحه بالمصادفات فإذاً من الذي يوجهها؟!!

يوجد الآلاف بل الملايين من الاستفسارات في هذا الكون والتي بمجرد حاولت الاستفسار عنها سيتبين لك مدى تعقيد هذا الكون في نظامه وانتظامه وهذا ما سأشرحه بشكل مفصل في رسالة التوحيد في الفصل القادم، وأخيراً وليس آخراً قد قرأت حديثاً مقالاً بمجلة السي إن إن للعلوم والتكنولوجيا، والمقال لكاتبة هي «لسلي ويكمان» وهي مديرة مركز أبحاث العلوم في جامعة أزوسا، كما عملت مهندسة في شركة «لوكهيد مارتن للصواريخ والفضاء» حيث شاركت في مشروع المسبار «هابل» التابع لوكالة أبحاث الفضاء الأمريكية.

يذكر المقال (أن علماء الفلك أعلنوا رصدهم لتموجات في

منظومة الزمان - المكان تمثل أصداء لعملية تمدد الكون الهائلة التي حدثت فور وقوع الانفجار العظيم.

ويمثل هذا الاكتشاف إنجازاً يتوج الفتوحات الكبيرة للفكر البشري في فهم كيفية نشوء الكون منذ الأزل وتطوره في صورة أعداد لا تحصى من المجرات والنجوم والسدم ومساحات شاسعة في أقطار الفضاء حتى إن علماء قالوا: إنّ سماع صدى الانفجار العظيم يمثل الحلقة المفقودة في علوم الفلك.

وموجات الجاذبية عبارة عن حركات موجية ضعيفة تنتشر عبر الأجرام بسرعة الضوء وكان العلماء يجدّون في البحث عنها منذ عشرات السنين لأنها تمثل الأدلة الغائبة في سياق نظريتين. النظرية الأولى هي النظرية النسبية العامة لإنشتاين التي سعى فيها إلى تعميم مفاهيم نظريته الخاصة وأضاف إليها مفهومي التسارع والجاذبية.

وتقول النظرية العامة بأن قوانين الكون واحدة لكل الأجسام بصرف النظر عن حالات حركتها وأن الحركة غير المنتظمة مثلها مثل الحركة المنتظمة كلتاهما حركة نسبية وتقول أيضاً إنّ المادة هي التي تتسبب في انحناء منظومة الزمان - المكان (الزمكان) وأيضاً بمبدأ التكافؤ أي التعادل بين عزم القصور الذاتي وقوة الجاذبية الأرضية وبأن الضوء يسير في خطوط منحنية حينما يقترب من جرم كوني ذي جاذبية كبيرة.

أما النظرية الثانية، التي ظهرت في ثمانينيات القرن الماضي وأطلقت على موجات الجاذبية اسم التمدد الكوني وترتكز على فكرة بديهية تقول أن الكون نشأ عن الانفجار العظيم وهو عبارة عن انفجار في منظومة الزمان - المكان منذ 13.8 مليار عام وأن الكون تمدد

بطريقـة لوغاريتميـة ممـا أدى إلى تناسـق الكـون بصـورة ملحوظـة فـي أغـوار الفضـاء كمـا وجـدت نتيجـة لذلـك تموجـات هائلـة نجمـت عنهـا موجـات الجاذبيـة.

وبقـدر مـا يعـد العلمـاء هـذا الاكتشـاف دليـلاً علـى صحـة نظريـة «التضخـم» (أي تمدد أسـرع من الضوء للأكـوان) فإنها أيضـاً توفّر دعماً لنظـرة الأديـان لنشـأة الكـون مثلما وردت فـي كتـب الديانـات السماوية. كيـف ذلـك؟

لقـد كانت النظرية السائدة حول أصل الكـون قبل «الانفجار العظيم» تستنـد إلى «حالـة الاستقـرار» التـي تعنـي أنّ الأكـوان كانت موجـودة منذ الأزل من دون بدايـة تتطلب سببـاً للوجود ولكن الدليـل الجديد يدعم بقوة الـرأي القائـل بأنّـه كانـت هنـاك بدايـة لكوننـا.

فـإذا كان لكوننـا فعـلاً بداية فبمنطـق السبب والأثـر البسيـط ينبغي أن يكـون هنـاك عامـل - منفصـل ومستقل عن الأثـر - تسبـب فـي ذلـك.

وفـي هذا نجـد صدى لآيات موجودة فـي الكتـب المقدسة التـي تشير إلى أنّ الإلـه «خلـق السمـاوات والأرض».

لذلـك فـإنّ الاكتشـاف يعـد نبأ جيـداً لنـا كمؤمنـين تمامـاً مثلما هو بالنسبـة إلى علمـاء الفلـك الذيـن يدعمـون نظريـة سببية وجـود الكون أو خلقـه مـن قبـل شـيء أو كائـن مـن خـارج المنظومـة ولا يعتمـد عليهـا.

ويقـول عـالم الفلـك الملحـد السابق الذي تحـول إلى «لا أدري» فريد هويـل، وهو الذي يقف وراء إطلاق كلمة «بيـغ بانغ» (أي: الانفجار الكبير) فـي إحدى عباراتـه الشهيرة «إنّ تأويـلاً مستنداً إلى الفطـرة السليمة إزاء الأحـداث يقودنـا إلى أن مفكـراً خارقـاً تلاعـب بـ (قوانـين) الفيزيـاء».

ومثلما رأى هويل ذلك، فإنّ الانفجار العظيم لم يكن انفجاراً فوضويا، ولكن على العكس من ذلك، حدثاً منظماً بكيفية دقيقة جداً، ولم يكن له أن يحدث بمحض الصدفة.

وعلينا أن نتذكر أن الخالق يكشف عن نفسه بواسطة ما يصدر عنه في الآيات التي نقرؤها في الكتب المقدسة وعملية الخلق ذاتها. والتحدي هو في التعرف إلى كيف يتناسبان معاً والفهم الأفضل لهذا الجانب يمكن أن يشرح لنا الجانب الآخر.

فليس الأمر مثلاً، مجرد فتح الكتاب المقدس وقراءة ما نجد فيه من زاوية نظر من القرن الحادي والعشرين إذ علينا أن ندرس الإطار والثقافة والنوع والتأليف ومتلقي الرسالة حتى نتفهم القصد.

فرسالة الخلق في سفر التكوين، وغيرها في الديانات السماوية، تبلغنا بأنّ الإله خلق للإنسان مكاناً خاصاً ليعيش فيه ويزدهر ويكون على تواصل معه، وأن الإله يريد أن تكون لنا علاقة به وأنه يقيم أحكام تلك العلاقة حتى عندما نتحول بعيداً عنه.

لذلك نعرف أنّ تلك الكتب لم تعلن عن نفسها كتبا علمية لتفسير الأحداث أو شرح كيف خلق الإله الكون ولكنها تتضمن رسالة دينية ثيولوجية وليست علمية ولكم أن تتخيلوا نوع الرسالة عن الجاذبية وموجاتها والمادة المظلمة التي كان سيتلقاها رجال العصور القديمة.

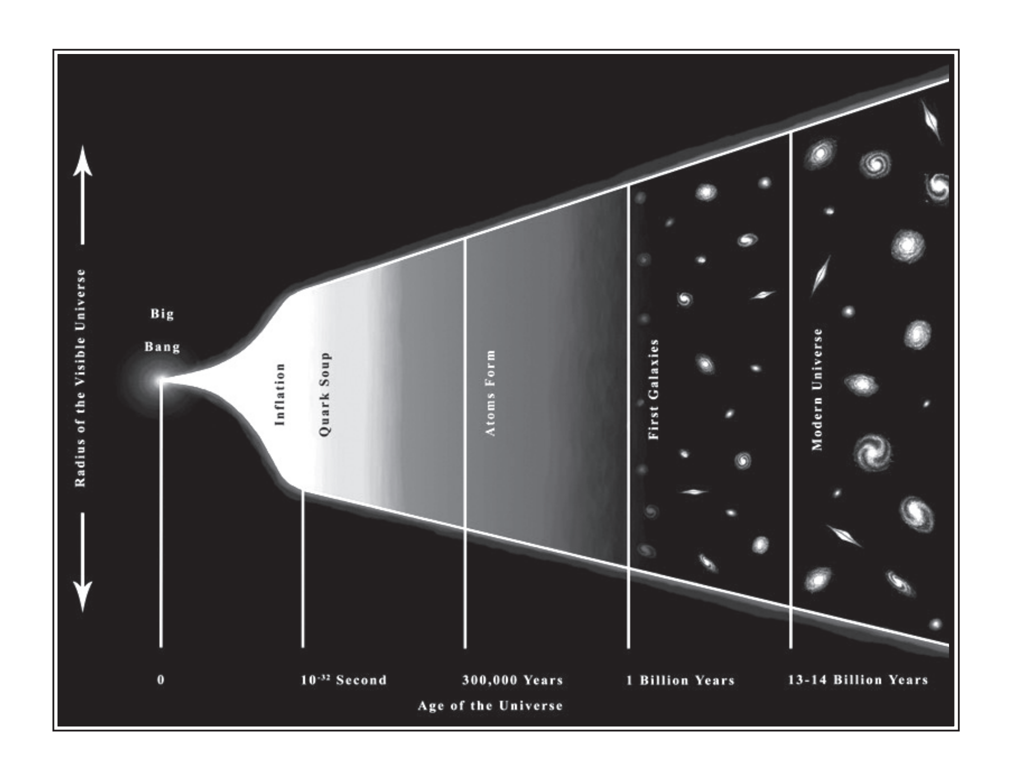
وتختم العالمة: وبصفتي مؤمنة حداثية وعالمة، وعندما أنظر إلى السماء في ليلة صافية، أتذكر ما ورد في الكتب السماوية التي تشير إلى أنها من آيات وجود الإله. إنني أشعر أنني في قلب عالم فيزيائي معقد وكيف أنّ كل أجزائه تتناسب معاً بكيفية مثالية ومتناغمة).

نظرية التطور

كما أن الكتب السماوية تخبرنا كيف أن الله وضع ميزان النهار والليل وقوانين السماء والأرض الفيزيائية.

إنها قوانين فيزيائية أنشأها الإله لتحكم التفاعلات بين الأمر والطاقة، ونتج عنها كون منظم بصفة دقيقة جداً توفر الشروط المثلى للحياة على كوكبنا وعندما نلاحظ تعقيدات الكون، من الجزيئات الذرية إلى المادة السوداء والطاقة السوداء، نستخلص بسرعة أنه لا بدّ أن هناك شرحاً يرضي أكثر من محض الصدفة. وإذا تم استخدامه بكيفية جيدة، فإنّه يمكن للعلم أن يكون عبادة عبر النظر في كيفية كشف الخالق عن نفسه في الطبيعة.

وإذا كان الرب هو الخالق، فإنه سيكشف عن نفسه من خلال ما خلقه والعلم هو وسيلة يمكن استخدامها لاكتشاف هذه العجائب.



معالجة الإلحاد والدعوة إلى الخالق

عندما تحدثت في بداية الكتاب عن أنني قررت أن أخوض في أمور ربما هي ليست من اختصاصي أو بالأحرى ليست ضمن مجال دراستي كنت أقصد بها أمور الدعوة.

الدعوة هنا لا أقصد بها الدرس الديني المعتاد الذي نسمعه عند أساتذتنا في الدين الكرام، إنما هي عبارة عن خلطة قادتني إليها نظرية التطور نفسها، فالدعوة هنا هي نتاج ونتيجة لنفي نظرية التطور، إن كل نفي ينتج عنه انعكاس، ونفي التطور والظهور التلقائي ينتج عنه تأكيد على وجود خالق ما يدير وينظم هذا الكون العظيم بما فيه من معجزات وأعاجيب.

إذاً لا يمكن معالجة التطور دون التطرق إلى الدعوة إلى خالق والدعوة إلى التوحيد وهنا سأقوم بهذه الدعوة إن صح التعبير عن طريق استفسارات منطقية أودت عقلي ومخيلتي حينما كنت أدرس النظرية في جامعتي.. وقد استفدت كثيراً من بعض أساتذة الدين والمنطق والفلسفة في فهم الدعوة والتشبث بها وطرحها هنا آملاً من الله أن لا يخذلني وأن يعطيني من القوة العقلية ما يكفي لأن أختم هذا الكتاب ببصمة علمية تماشي العقل والدماغ البشري والذي هو أشرف وأحسن المخلوقات.

إن مما لا شك به أنّ نظرية التطور خرجت عن أنها نظرية علمية وأصبحت أيديولوجية مسيسة ولكني لن أدخل في السياسة، دعونا نكمل في العلم والمنطق، فهو بحرنا ولنا به ما نريد بإذن الله.

سأبدأ من بعض الأمور التي أضلت الداروينيين.

فبعد معالجة نظرية التطور وما يؤمن به التطوريون لا أظن أن هناك داعٍ للتوسع بالأدلة الفيزيائية لنفي هذه النظرية، ولكني سأتطرق قليلاً إلى الموضوع من ناحية احتياطية ليس إلا.. فلربما قارئي لا يؤمن بالمنطق ولا يتمسك بالصواب والنور إلا عند لمس الحقيقة فيزيائياً..

هناك أمور كثيرة أضلت الداروينين أثناء محاولتهم نشر رسالتهم فقادتهم إلى الوهم وقد وقفوا عندها عاجزين عن أي تبرير.. سأذكر البعض من هذه الأمور التي لربما تكون نقطة حسم قاطعة للقارئ الدارويني الذي قد وصل بالقراءة إلى هذا السطر من الكتاب ومازال يتساءل بأنه ليس مقتنعاً بنظرية داروين ولكن لا يؤمن بخالق لهذه الكائنات..

إن خطأ الداروينين الفاحش والذي أعتقد أنه السبب الأساسي في نسف نظريتهم هو تناقضهم مع علوم أخرى في هذا الكون ولا سيما علم الأحياء. أي يجب ألا تتناقض علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء وعلم النبات والحيوان والجيولوجيا وعلم المتحجرات فيما بينها عند القيام بتفسير الوجود.

أول هذه الأمور التي أضلت الداروينيين هي تجارب ميللر، لقد استعمل أنصار التطور تجارب ميللر وكأنها دليل على حدوث مثل هذه التفاعلات. طبعاً لربما يسأل سائل عن أي تفاعلات تتحدث..

إن ميللر قام بتجارب عديدة للحصول على خلية حية. كان إنساناً

يملك علماً وشعوراً وإرادةً، حاول مراراً وتكراراً الحصول على خلية حية بمساعدة أحماض أمينية قام هو باختيارها. كان من الضروري في هذه التجارب دوام التزويد بالطاقة المسيطر عليها لكي يظهر كائن حي (خلية حية أولى)، ثم لكي يستمر في الحياة.

والشيء الأهم هنا هو الحفاظ على الأحماض الأمينية المتشكلة من التحلل، وجمعها معاً ضمن مصيدة باردة وضعت خصوصاً لهذا الغرض.

فإن كانت هناك قابلية لدى الأحماض الأمينية للانقلاب إلى الحياة فإن الإنسان الذي يملك المعرفة والإرادة يستطيع تحريك هذا الاستعداد وتنشيطه. ولكن الزعم بأن كل هذا يحصل نتيجة المصادفات ونتيجة الظهور التلقائي يعد بلا شك استهزاء بالعقل والإرادة!

هناك لمعة قد قرأتها في إحدى لمعات سعيد النورسي التي تُعد ضربه للتطوريين فيقول:

«دخل رجل أحمق إلى قصر كبير، فرأى أن هذا القصر المنيف قد زين وأثث بأفخم الأثاث وأجمله، فهناك المناضد والكراسي والفرش والمزهريات والورود واللوحات الفنية والمدافئ وما يحتاجه المطبخ من أشياء وأغراض....

والخلاصة وجد كل شيء في مكانه الصحيح. وبينما كان هذا الرجل الأحمق يتجول في أرجاء القصر ويفكر بمن قام بكل هذا التأثيث والتزيين ولكنه لم يجد أحداً، وإذا به يرى كتاباً فوق منضدة وكان الكتاب يحتوي على برنامج تأثيث القصر، فقال الأحمق: لقد وجدت ما كنت أبحث عنه. هذا الكتاب هو الذي قام بتأثيث هذا القصر».

هل هناك من أحد لا يطلق صفة الجنون على شخص يسند تأثيث

قصر من القصور إلى كتاب تعريف الأثاث؟ أو يسند صنع أي ماكينة أو جهاز إلى نشرة تعريف الجهاز أو الماكينة؟!!

وبينما هذه الحقيقة بأوضح شكل، فإنني شخصياً لا أفهم على الإطلاق كيف يمكن لشخص تخصص بعد التخرج من الجامعة في الفيزياء أو البيولوجيا أو الكيمياء أو الأنثروبولوجيا أو الكيمياء الحيوية وأصبح أستاذاً بأن يسند هذا الكون الرائع وما يحتويه من زينة وما يبدو فيه من تصميم دقيق ووجود كل شيء في المكان والموقع الصحيحين وما يحتويه من تناسق وتناغم أصيل لا يفسد ولا يهتز ولا يحتاج لأي تعمير أو إصلاح... أن يسند كل هذه الروعة إلى المادة الخالية من الحياة ومن العلم ومن الشعور والإرادة أو إلى بعض المفاهيم التي يطلق عليها اسم القوانين التي تم اكتشافها أصلاً عند دراسة هذا الوجود وكيفية ظهوره وكيفية عمله أو أن يسنده إلى المصادفات التي هي مفهوم مجرد أو يعزوه إلى الظهور التلقائي.!!

يقول العالم السويدي المشهور «جارلسايجون كوي» وقد قرأت له كتاباً أثناء بحثي عن الحقيقة لإكمال هذا الكتاب.. يقول:

«تتألف جزيئة البروتين من 40000 ذرة». لذا فنسبة احتمال ظهور جزيئة بروتين واحدة عن طريق المصادفات هو احتمال واحد من احتمالات كبيرة وهائلة تبلغ 10 أس 60 ... أي يساوي الرقم واحد مقسوماً على عدد هائل هو رقم واحد وأمامه ستون صفراً. علماً بأنه عند الأحياء لا نجد جزيئة بروتين واحدة بل سلاسل من البروتينات.

ويقول الدكتور «لو كونت دي نوي» عن احتمال ظهور سلسلة واحدة من البروتينات عن طريق المصادفة:

لا يمكن التعبير عن ظهور سلسلة من البروتينات عن طريق المصادفات إلا باحتمال واحد ضمن رقم هائل من الاحتمالات يبلغ رقم 10 أس 243. ولكن الإنسان لا يتألف من سلسلة واحدة من البروتينات، لأن الإنسان يتألف من 60 ترليون خلية!! وترتبط هذه الخلايا ببعضها بروابط قوية بحيث أن فساد عضو أو نظام واحد لهذه الخلايا قد يؤدي إلى موت الإنسان.! وحياة الإنسان مستمرة ضمن استمرار هذه العلاقات الحساسة جداً والمتكاملة جداً. وعندما يتأمل الإنسان هذا النظام الدقيق الرائع لا يملك إلا أن يهتف من قلبه «يا الله»...!

قبل تناول البروتينات ودورها في الكائنات الحية تأتي الأحماض الأمينية أولًا. فمن خلال دراستي الجامعية وجدت أن تنتظم هذه الأحماض الأمينية في سلاسل معينة مشكلة البروتينات. ولكن البروتينات تحتاج إلى أشياء أخرى لتشكيل خلية حية. كل كائن حي عباره عن «نظام» من الجزيئات المتجمعة ضمن تصميم معين. ولكي يستمر في الحياة عليه أن يتغذى ويحصل على طاقة، وعلم البيولوجيا المناصر للتطور يزعم بأن الكائن الحي الأول حصل على هذه الطاقة من الشمس، كما استفاد من البروق ومن الأشعة فوق البنفسجية. بينما نعرف بأن الكائن أثناء تشكله وبعده يحتاج للتزود بنسبة معينة من الطاقة بشكل منتظم ودون انقطاع لكي يستمر في الحياة. بينما أشعة الشمس تكون موجودة في النهار فقط إن لم تكن هناك غيوم، ولا توجد في الليل، ثم أن جزءاً كبيراً من السنة يكون شتاء! لذا لا تكون الطاقة الآتية من الشمس منتظمة وبالمقدار نفسه. أما البروق فتحرق وتهدم،وحتى لو افترضنا وجود نصيب من الصحة في هذا الادعاء فكيف نفسر تنظيم العلاقة المزعومة بين أشعة الشمس والأشعة فوق البنفسجية والبروق وبين ظهور الكائنات الحية... ثم

إنه من قال إن الشمس موضوع مسلم به ولا يحق لنا أن نسأل كيف نشأت أو من أين وكيف ومتى ومن ولماذا؟!

ثم إنه ماذا عن أجهزة الهضم والدوران والإفراغ والتنفس لدى الكائن الحي الأول؟ نظرية التطور ترى استحالة ظهور مثل هذه الآلية المعقدة بشكل فجائي في وقت واحد. وإن كان هناك كائن حي على شكل دودة قد ظهر إلى الوجود في أحد المستنقعات حسب زعم داروين. هذه الدودة ستكبر طبعاً فماذا سيكون عمرها؟!

وهل سيكفي هذا العمر لكي تتطور وتنقلب إلى نوع آخر؟ وعندما تنقلب هذه الدودة إلى نوع آخر، هل ستتشكل بعدها دودة أخرى؟ أم أنه ظهرت أعداد كبيرة من الديدان في أماكن عديدة من الدنيا وانقلبت مجموعة منها فقط إلى نوع آخر؟ لنقل أن الدودة تطورت وانقلبت إلى ضفدعة ثم انقلبت ضمن سلسلة من التطورات إلى حيوان الكنغر وأن هذه السلسلة استمرت وتتابعت حتى ظهور الإنسان حيث صغرت الآذان لعدم الحاجة إليها مثلًا.. وهكذا ظهرت في الحياة مختلف أنواع الكائنات الحية.

ولكن طالما تطور فرد أو بضعة أفراد داخل كل نوع، لماذا لم يتطور الأفراد الآخرون؟ وهل هناك آلية لا نعلمها تقرر هذا الأمر من ناحية عمليات التطور ومدة كل مرحلة منها؟ وهل يمكن إسناد هذه العمليات وظهور هذا النظام الدقيق في الكون والحياة على سطح الأرض ثم تطورها وتوسعها وتكاملها إلى المصادفات العشوائية، في الوقت الذي تبين قوانين الاحتمالات استحالة ظهور جزيئة بروتين واحدة تلقائياً بعوامل المصادفات؟! وحتى لو فرضنا أن بضعة أفراد من كل نوع تطوروا وانقلبوا إلى نوع آخر فعمر أي من الأحياء يكفي لحدوث هذا

التطـور؟! فهـل كان عمـر هؤلاء الأفراد الذيـن تطـوروا يبلـغ الملايين من السنـوات؟!!

لا يملـك هؤلاء الداروينيون ولا العلم الإجابـة عـن هـذه الأسئلـة...

وكل مـا يستطيعـون أمام هذه الأسئلة هو قولهم «إن هذا ما حدث»...

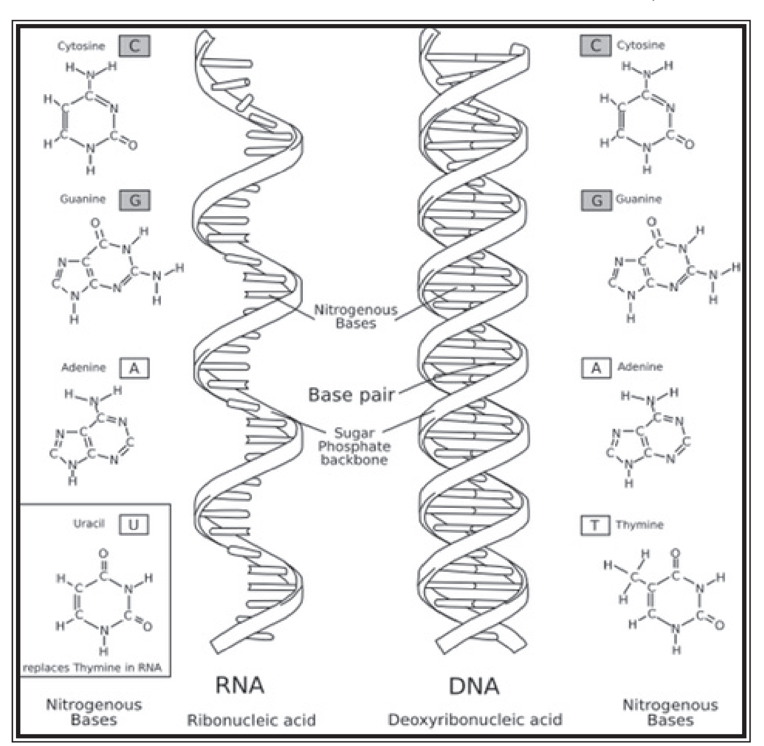
ولعل أكثر الأمـور التي أضلت الداروينيين هي الوجود الزوجي (الذكر والأنثـى).

هنـا سأستمـر فـي فرض وقـوع المستحيـلات والمحالات معتـبراً نفسي خرافـي التفكـير فأقول نعم إنه تم ظهور الديدان عن طريـق التطور. ولكننا نلاحـظ وجـود الـزوج لا في الأحيـاء فقط بل فـي الجماد كذلـك.! والذين يقومـون برسـم صور القرد وهو يقترب من الإنسان مرحلـة مرحلة يرسمون فـي الأخـير صورة رجل غربي فـي متوسـط العمـر. ولكنهم لا يقولـون شيئاً حـول كيفيـة ظهـور المـرأة! فأيـن حقـوق المـرأة؟!!!!

كيـف ظهـرت الأنثى الأولى لهـذا الكائن، وأين؟ وهل ظهـرت بجانب الرجـل أم في مكان آخر؟ وكيف عثر أحدهمـا على الآخر؟ ومن أين حصلا علـى غريـزة التـزاوج؟ وهل كان هـذا أيضـاً نتيجـة المصادفـات؟! ثم هل فكـر أحدهـم في عـدد السنـوات اللازمـة لتحول مئـات الآلاف من الأنواع مـن نـوع إلى نوع ثـم نشوء الأجيـال الجديدة من ذكـر وأنثـى وتوزعها في كافـة أرجـاء العـالم؟!

قبـل أن أختـم هـذه الفقـرة أريد أن أغـرق قليـلًا في علـم الجينات وهـو العلم الـذي أتقنت تعلّمـه بحثاً عـن الحقيقة والنور فـي نشوء الإنسان وتكوينـه.

في هذه الفقرة أود أن أوجه الأنظار إلى نقطة أخرى وهي أن للخلية خاصية الحفاظ على نفسها وهي تعمل عمل حكومة وتعد جزيئات DNA الموجودة فيها بمثابة قائد أو حاكم يقوم بتعيين طبيعة بنية الإنسان البيولوجية. ثم هناك جزيئات RNA التي تقوم بعمل المهندس والكيميائي بعمليات التركيب والدمج وكأن أحداً ما أودع موضوع تعيين وضع الإنسان وماهيته في هذه الجزيئات. وهذه الجزيئات تحتوي على معلومات موجودة بشكل شيفرات والتي تملأ إلى صنع بروتينات لازمة للخلية. ولم يجد الفكر المادي مرجعاً لهذه العمليات الباهرة ولهذه الآلية المدهشة التي ترسل بموجبها جزيئات DNA الشيفرات إلى جزيئات RNA التي تقوم بفك هذه الشفرات إلا إسنادها إلى هذه الجزيئات والمصادفات.



ومع أننا أيها السادة اليوم لا نملك معلومات قاطعة حول الخلق الأولي للخلية فإن العلم الحديث يعطي لنا معلومات كثيرة حول الخلية، حيث يعرض كل جزء من أجزائها أمامنا ويوضح لنا مدى التعقيد الذي تتميز به الخلية. ولو كان داروين يملك المعلومات الحالية عن الخلية لقال عنها ما قاله عن العين. فهو يقول في رسالة له إلى صديق: (كلما فكرت في العين زادت حيرتي وذهولي) لأنه لم يكن يستطع تفسيرها بالانتخاب الطبيعي. ولو استطاع أن ينظر إلى الدماغ وكيفية ظهوره لتضاعفت حيرته وذهوله.

من الصعب عليَّ سرد جميع خواص الخلية ففيها فعاليات كثيرة كفعاليات جيش كامل، فكل ما يحتاجه الجسم يركب هناك ويصنع. وللخلية غشاء يملك جزيئات لها شيفرات تميز بها الخلية المواد النافعة من المواد الضارة وإذا ظهرت الحاجة أضيفت شيفرات أخرى كذلك. وتتصرف هذه الجزيئات كنقاط شرطة وحراسة، أو كموظف جمارك، فتفتح الأبواب أمام المواد المفيدة، وتبدي ردود فعل ضد المواد الضارة، وتعلن حالة الطوارئ في الخلية وتبدي الخلية مقاومة ضد أي تدخل أجنبي، وإذا لم تستطع المقاومة تمرض وتستدعي العلاج من الخارج وأحياناً تموت. هنا تتعاون خلايا الجسم وتقوم بإخراج هذه الخلية الميتة لخارج الجسم حرصاً على نظافة المكان.!

عند وقوع تدخل خارجي على خلية ما تقوم هذه الخلية بمقاومة التدخل وترمي بالجراثيم الضارة خارج الجسم أما إن عجزت عن المقاومة مرضت وماتت وقد يؤدي هذا المرض إلى موت الإنسان. وهذا يعني أن أي تدخل خارجي لا يستطيع تغيير ماهية الخلية. وإذا لم تكن المادة المتدخلة متكيفة مع الخلية ومفيدة لها قامت بإفسادها أو سعت بها إلى الموت.

والخلاصة أنه ليس من المستحيل ظهور وتكون كائن حي فحسب، بل لا يمكن أن يحدث أي حادث تلقائياً ومن نفسه. فلا يستطيع حجر صغير أن يغير مكانه تلقائياً، ولا يتعرض للتآكل دون حدوث تأثير خارجي.

أليس غريباً أن نربط كل شيء وكل حادثة كذلك بسلسلة السبب والنتيجة وإنكار وجود أي شيء خارج القوانين والنظر إلى الطبيعة وكأنها عبارة عن هذه القوانين وإنكار وجود أي تأثير آخر خارج الطبيعة وخارج قوانينها؟!!

أي أننا بهذا نعزو الألوهية إليهما، ثم نتناقض مع أنفسنا فندعي أن هذا الكون الرائع وكل ما يحويه ظهر تلقائياً.

بينما نرى أن الإنسان قد جُهز بقابليات وملكات كثيرة ومتعددة ومدهشة من الناحية الذهنية والقلبية. وهو مع هذا صاحب شعور وإرادة وله علاقات وارتباطات مع الزمان والمكان وعلاوة على هذا فهو لا يكتفي بهذا بل تراه يهتم بما وراء الزمان والمكان..

وعدا هذا فهو مجهّز بعواطف لا تعد ولا تحصى لذا فهو مخلوق كامل مرشح لحياة خالدة. لذا فإن النظر إلى مثل هذا الوجود الإنساني وكأنه مرتبط فقط بالمادة وبالطبيعة وبالمصادفات وبالقوانين التي لها قيم نسبية فقط وبفرضيات كالتطور، يعد أكبر إهانة للإنسان وللإنسانية ولأصحاب هذه الفرضيات نفسهم..

أجل، ما من أحد غير الإنسان يستطيع فعل ما فعله الإنسان نفسه ضد الإنسان.

لا تستقيلوا من الإنسانية..

السؤال هنا الذي يطرح نفسه في الخلية هو: من الذي يعطي الإذن لاستعمال بعض هذه المعلومات الجينية الموجودة في الكروموسومات - والتي يشكل كل منها موسوعة معارف كاملة - ولا يسمح لبعضها الآخر؟ لقد دلت الأبحاث أن هناك بروتينات تملك خاصية وقابلية فتح معلومات معينة وقراءتها وغلق معلومات أخرى ومنع قراءتها. وبعبارة أخرى إن الشيفرات الجينية تحل رموزها وتُقرأ من قبل مجموعة من البروتينات لاستعمالها في صنع البروتينات حيث تقوم هذه البروتينات المصنوعة بتعيين متى وبأي شكل يجب أن تتم قراءة هذه المعلومات..

فيا ترى من أين تتلقى هذه البروتينات أوامرها؟ ومن الذي يوجهها في هذه الفعاليات التي يعدّ مجرد اكتشافها حتى من قبل الإنسان - الذي يعد أرقى الأحياء من ناحية الشعور والفكر والعلم - فتحاً كبيراً ونجاحاً متميزاً؟ وكيف تصل هذه البروتينات إلى وضع تستطيع فيه تدقيق البرنامج الجيني الذي أخذته من أجل إنتاج نفسها ثم السيطرة على هذه المعلومات فيما بعد؟ ونستطيع أن نشاهد برنامجاً غامضاً عند القيام بإنتاج نسل جديد. كما أنه من المدهش جداً ما نراه من قابلية الحيوان على إصلاح الأعضاء الجريحة أو المقطوعة أو التالفة وتجديدها، وإن كانت هذه الأمور تجري تحت ستار الإلفة.

فالخلايا الموجودة في الأعضاء المقطوعة أو التالفة كانت خلايا اعتيادية في الجسم ولم تكن قد تميزت. فمثلاً عندما تُقطع رجل من أرجل الضفدع تبدو أن الخلايا نفسها - وكأنها تلقت أمراً سرياً من مصدر ما - تتمايز وتقوم بتشكيل خلايا غضروفية وخلايا عظيمة وخلايا عضلية والأنسجة الجلدية لكي تشكل منها ساقاً جديدة...

فهل يوجد تخطيط لبناء الأرجل في هذه الخلايا؟ هل هناك مثل هذا التخطيط تعرف منه هذه الخلايا أن الكائن الحي بحاجة إلى رجل فتقوم بصنعها وتنفيذ هذا المخطط؟ ولماذا لا تنشط هذه الخلايا إلا عندما يحتاج الجسم إلى مثل هذه الفعالية؟

وبما أنه يستحيل على الخلايا معرفة هذا، وبما أنه لا يوجد في الجسم ولا في الطبيعة أي آلية أو مركز يقوم بتزويد الخلايا بمثل هذه المعلومات والإيعاز إليها للقيام بهذه الفعاليات إذن فهناك من يعرف جميع حاجات الجسم، وله القدرة على تلبيتها...

إذاً أيها السادة الكرام.. هناك من يعرف مكان وزمان كل هذه الأعمال والفعاليات..

ثم هناك قضية التطور والمراحل التي يمر منها الجنين داخل رحم الأم أود أن أسردها بشكل مبسط.

تقول نظرية التطور في أحد ادعاءاتها عن هذا الموضوع أن الجنين عندما يمر بمراحل النمو في رحم الأم يكون مشابهاً للمراحل الأولى لنمو الأجنة الأخرى للحيوانات الفقرية الأخرى. ولا يوجد لهذا الادعاء أي جانب مقنع.

غطست في صفحات الكتب والمراجع لعلّي أجد من تطرق إلى هذه النقطة قبلي وإذ بي أجد أن البروفيسور «شنكون» قد تطرق إليه ونقده قائلًا «نحن لا نعرف الشيء الكثير عن مدى التناظر والتشابه الموجود في مراحل نمو وتطور البويضة المخصبة. علماً بأنه ليس من السهل معرفة وملاحظة التناظر والتشابه، لأن بعض الأجنة تنمو وتتطور بسرعة، بينما تكون أجنة أخرى بطيئة النمو والتطور. ومع وجود تشابه شكلي فإن نسل كل كائن حي يملك خواصاً وكروموسومات وجينات واستعدادات ومسار نمو وتطور خاص به».

شخصياً لم أكتفِ بهذا النقد، فالتطوريون لا يأبهون إلى المنطق وإنما بحاجة لأن تدمغ عقولهم بالمفاهيم العلمية المرئية لكي تنفي ما يعتقدونه صائباً ولهذا تركت مسألة الغوص في صفحات الكتب العلمية لأذهب إلى الكتب الدينية، فذات يوم أذكر من خلال قراءتي لأحد الكتب السماوية أني مررت على آية كانت تتحدث عن هذا الموضوع تماماً.

فكانت الآية الكريمة هي: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ (14) ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (15) } [سورة المؤمنون].

يعطي القرآن معلومات حول مراحل تطور الجنين وهي معلومات أيدها العلم بعد 14 قرناً من نزوله! لذا سأتناول التطور في ظل هذه الآية الكريمة مستفيداً من وجهها العلمي الخارق الذي يغنيني عن أي كتاب يمكن أن يبرهن عدم صحة نظرية التطور في هذا المجال.

بعيداً عن المعجزة العلمية الموجودة في هذه الآية والتي تكمن في أنه كيف لها أن تفسر تطور الجنين قبل 14 قرناً من قدوم العلم وبعيداً عن الاعتقادات الدينية المتعلقة في خلفية القرآن الإسلامية والدعوة الإسلامية، ولو أخذنا هذه الآية كمقال علمي موجود في أحد كتب مكتبات جامعة هارفرد للعلوم لوجدنا التالي:

تذكر الآية هنا أن العناصر الموجودة في التراب هي المنشأ المادي للإنسان وقد يكون هذا الذكر رمزاً أو تشبيهاً، والمقصود منه قد يكون الأغذية التي تدخل هذه العناصر فيها والتي تكوّن سائلًا أو حساء من البروتينات.

وكلا المعنيين صحيحان. ثم يدخل هذا السائل إلى رحم الأم كنطفة

حيث تبدأ بتعقب مراحل أخرى مختلفة فيجعلها الله تعالى أولاً علقة، أي قطعة دم متخثرة ملتصقة بجدار الرحم. وكلمة «علقة» في اللغة العربية لها ارتباط بكلمة «علاقة» أي أن شكل العلقة التي تأخذها العلقة الملتصقة بجدار الرحم تكون لها علاقة بالأم وبجسدها وتتغذى منه. وينسب القرآن كل هذه التطورات بالله تعالى، لأنه ليس باستطاعة تلك النطفة ولا تلك العلقة القيام بنفسها بأي عمل، ولا تملك أي حظ للنجاح في إنجاز أي عمل من الأعمال التي تستوجبها وتيرة التحول إلى إنسان كامل مهما كان صغيراً، والتي تقتضي شعوراً وإرادة وعلماً وقدرة لانهائية.

إن المراحل المختلفة التي يمر بها الجنين في رحم الأم يبدو من ظاهرها وكأن هذه المراحل تتم تلقائياً. وهنا وبكل بساطة وخفة عقل واستهتاربالعلم تقوم نظرية التطور بالادعاء بأن جميع هذه المراحل تتم تلقائياً وعن طريق المصادفات العشوائية فتعرض بذلك جهلاً وإنكاراً غير مسبوقين في التاريخ.

إن العلقة التي تلتصق بجدار رحم الأم تدخل في علاقة قوية وجذرية مع الأم ومع جسدها. ثم تتحول إلى «مضغة» وهي تعني شيئاً مثل قطعة لحم ممضوغة في الفم لا شكل لها. ثم لا تلبث أن تتحول بعض الخلايا الموجودة فيها إلى غضروف أولًا ثم تتحول تدريجياً إلى عظم. وبعد تشكل هذه الخلايا يتم تشكل خلايا العضلات والأنسجة الرابطة حيث يقوم اللحم المتشكل منها بإكساء العظم.

لم تتوضح تفاصيل هذه المرحلة في علم الأجنة الحديث إلا بعد تيسر رؤية بطن الأم بأشعة إكس، بينما شرح القرآن هذه المراحل قبل 14 قرناً بشكل واضح. علماً أنني كنت أعتقد أن الغاية الرئيسية للقرآن أو لأي كتاب سماوي هي عرض الحقائق الأساسية كالتوحيد والنبوة والحشر والعبادة والعدالة وإيضاحها والبرهنة عليها.

لذا فإن استعانتي بالقرآن الكريم في هذا الموضوع جاء من الضرورة العلمية التي قام بها القرآن من خلال عرضه للمراحل التي يمر بها الجنين في رحم الأم بكل هذا الوضوح والصراحة وكأنني أقرأ بين سطور هذه الآية أنها نزلت لتكون ضرورية لإزالة الشكوك التي ستثار في المستقبل ولإيضاح مدى خطأ ما سيطرح من نظريات كنظرية التطور فجاء هذا التنبيه والتفصيل قبل 14 قرناً لهذا الغرض.

ضمن هذه المراحل الخمس، أي مرحلة النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم مرحلة خلق العظام، ثم مرحلة إكساء العظام لحماً تبدو جميع الأحياء الفقارية متشابهة تماماً. ولكن هذا التشابه الذي يبدو تاماً هو تشابه ظاهري فقط. لأن كل جنين يملك خواصاً تعود لنوعه ويتميز بها ولا نستطيع مشاهدة هذه الخواص من الخارج لا بل لا نستطيع مشاهدتها حتى لو دخلنا بطن أمه، وهو ينمو ويتطور حسب هذه الخواص إلى درجة أن كل إنسان يختلف عن الآخرين إلى درجة ما لأنه يظهر في النهاية فرداً يختلف عن الآخرين بنواح عديدة: يختلف بشعره وعينيه وأنفه وشفتيه وقامته ووزنه وبصمات أصابعه وحزيئات الـDNA عنده ومظهر تصرفاته ودرجة صوته وقابليته. ومع هذا فلا يبدو في الظاهر أي فروق تشير إلى هذه الميزات والخواص في أجنة الأحياء الفقارية في المراحل الخمس الأولى، ولا يمكن ملاحظة أي فروق أي تبدو وكأنها مثل الأجنة الأخرى تماماً.

السؤال الذي يرد للخاطر هو، كيف ارتضى فلاسفة مشهورون وعلماء معروفون وجامعات خارقة بهذه الخرافة الفاضحة وسلموا لها زمام عقولهم ومناهجهم؟

الجواب كان على حسب مجدد الدين سعيد النورسي والذي عن طريق لمعاته سوف أكمل في هذا الفصل الحساس والدقيق،حيث كان برأيه: إن أولئك لم يتبينوا حقيقة مسلكهم ولا باطن مذهبهم ولم يدركوا ما يقتضيه مسلكهم من (محالات) وما يستلزمه مذهبهم من أمور فاسدة وممتنعة عقلاً، وأكمل قائلًا: أنا على استعداد كامل لإقامة البراهين الدامغة ونصب الحجج البدهيَّة الواضحة لإثبات ذلك لكل من يساوره الشك وأبينها لهم بإسهاب وتفصيل..

فيبدأ البراهين بالتالي:

أيها الإنسان!

اعلم أن هناك كلمات رهيبة تفوح منها رائحة الكفر والنَّتانة، تخرج من أفواه الناس وترددها ألسنة أهل الإيمان دون علمهم بخطورة معنى ما يقولون، وسنبين ثلاثاً منها هي الغاية في الخطورة:

أولها: قولهم عن الشيء (أوجدته الأسباب)، والذي سبق أن شرحته بأنه الانتخاب الطبيعي، أي أن الأسباب هي التي توجد الشيء المعين.

ثانيها: قول الداروينيين عن الشيء (تشكل بنفسه)، وأيضاً سبق أن شرحته في فصل نظرية التطور، أي أن الشيء طبيعي والطبيعة هي التي أوجدته واقتضته.

ثالثها: قولهم عن الشيء (اقتضته الطبيعة)، أي أن الشيء طبيعي، والطبيعة هي التي أوجدته واقتضته..

نعم مادامت الموجودات موجودة وقائمة أمامنا بما لا يمكن إنكارها مطلقاً وأن كل موجود يأتي إلى الوجود في غاية الإتقان والحكمة، وهو ليس بقديم أزلي، بل هو محدث جديد.

فيا أيها الملحد، إما أنك تقول أن هذا الموجود - وليكن هذا الحيوان مثلاً - توجده أسباب العالم، أي أنه يكتسب الوجود نتيجة اجتماع الأسباب المادية، أو أنه يتشكل بنفسه أو أنه يرد إلى الوجود بمقتضى الطبيعة ويظهر بتأثيرها! أو عليك أن تقول: إن قدرة الخالق القدير ذي الجلال هي التي توجده، لأنه لا سبيل إلى حدوثه غير هذه الطرق الأربع، حسب موازين العقل، فإذا ما أثبت - إثباتاً قاطعاً - أن الطرق الثلاث الأولى محالة باطلة ممتنعة غير ممكنة، فبالضرورة والبداهة تثبت الطريقة الرابعة، وهي وحدانية الخالق بيقين جازم لا ريب فيه.

المسألة الأولى هي القول بأن (اجتماع أسباب العالم يخلق الموجودات ويوجدها، ويؤدي إلى تشكيل الأشياء) نذكر منه ثلاثة محالات فقط من بين محالات كثيرة جدا لا تكفي صفحات كتابي لنشرها كلها..

المحال الأول:

ولنوضحه بهذا المثال:

تحوي الصيدلية مئات الدوارق والزجاجات المملوءة بمواد كيمياوية متنوعة، وقد احتجنا - لسبب ما - إلى معجون حيوي من تلك الأدوية والمواد لتركيب مادة حيوية خارقة مضادة للسموم.. فلما دخلنا الصيدلية وجدنا فيها أعداداً هائلة من أنواع ذلك المعجون الحيوي ومن تلك المادة الحيوية المضادة للسموم، وعندما بدأنا بتحليل كل معجون رأيناه مركبا مستحضراً بدقة متناهية من مواد مختلفة طبق موازين محسوبة، فقد أخذ من تلك الزجاجات غرام واحد من هذه.. وثلاثة غرامات من تلك.. وعشرة غرامات من الأخرى.. وهكذا فقد أخذ من كل منها مقادير مختلفة، بحيث لو كان ما أخذ من هذه المقادير أقل منها بجزء من الغرام، أو أزيد لفقد المعجون خواصه الحيوية..

والآن جئنا إلى (المادة الحيوية المضادة للسموم) ودققنا فيها فرأيناها قد ركبت بمقادير معينة أخذت من تلك الزجاجات وفق موازين حساسة بحيث أنها تفقد خاصيتها لو أخطأنا في الحساب فزادت المواد المركبة منها أو نقصت بمقدار ذرة واحدة.

نخلص من هذا: أن المواد المتنوعة قد استحضرت بمقادير مختلفة وفق موازين دقيقة. فهل يمكن أو يعقل أن يتكون ذلك المعجون المحسوب كل جزء من أجزائه حساباً دقيقاً جراء مصادفة غريبة؟ أو من نتيجة تصادم الزجاجات بحدوث زلزال عاصف في الصيدلية يؤدي إلى سيلان تلك المقادير بموازينها المعينة، واتحادها بعضها بالبعض الآخر مكوناً معجوناً حيوياً..؟! فهل هناك محال أغرب من هذا وأكثر بعداً عن العقل والمنطق؟ وهل هناك خرافة أخرق منها؟ وهل هناك باطل أوضح بطلاناً من هذا؟

إن كل كائن حي هو مركب حيوي ومعجون ذو حياة. وإن كل نبات شبيه بترياق حيوي مضاد للسموم إذ ركب من أجزاء مختلفة ومن مواد متباينة وفق موازين دقيقة في منتهى الحساسية.. فلا ريب أن إسناد خلق هذا الكائن البديع إلى الأسباب المادية والعناصر، والقول بأن (الأسباب أوجدته) باطل ومحال وبعيد عن موازين العقل بمثل بعد وبطلان ومحالية تكون المعجون الحيوي بنفسه من سيلان تلك المواد من الزجاجات. وحقيقة الذي ذكرته هي أن المواد الحيوية المستحضرة بميزان القضاء والقدر للحكيم العليم في هذا العالم الكبير الذي هو صيدلية ضخمة رائعة لا يمكن أن توجد إلا بحكمة لا حد لها، وبعلم لا نهاية له وبإرادة تشمل كل شيء وتحيط بكل شيء، وإلا فما أشقاه من يتوهم (أن هذه الموجودات هي نتاج عناصر الكون الكلية) وهي العمياء الصماء في جريانها وتدفقها، أو هي (من شؤون طبائع المواد) أو (من عمل الأسباب المادية)!.

أما عن التوحيد فيا قارئي، تأمل في بستان هذه الكائنات، وانظر إلى جنان هذه الأرض، وأنعم النظر في الوجه الجميل لهذه السماء المتلألئة النجوم. ترى أن للصانع الجليل جل جلاله، ختماً خاصاً - بمن هو صانع كل شيء - على كل مصنوع من مصنوعاته وعلامة خاصة على كل مخلوق من مخلوقاته، سأذكر من تلك الأختام والعلامات بضعاً منها نموذجاً ليس إلا. انظر إلى هذه العلامة التي وضعها على الحياة: ((أنه يخلق من شيء واحد كل شيء، ويخلق من كل شيء شيئاً واحداً))، فمن ماء النطفة - بل من ماء الشرب - يخلق ما لا يعد من أجهزة الحيوان وأعضائه، فهذا العمل - لا محال - خاص بقدير مطلق القدرة. ثم إن تحويل الأطعمة المتنوعة - سواء الحيوانية أو النباتية - إلى جسم خاص بنظام كامل دقيق، ونسج جلد خاص للكائن وأجهزة معينة من تلك المواد المتعددة لا شك أنه من عمل قدير على كل شيء وعليم مطلق العلم.

نعم إن خالق الموت والحياة يدير الحياة في هذه الدنيا إدارة حكيمة بقانون أمري معجز بحيث لا يمكن أن يطبّق ذلك القانون وينفذه إلا من يصرف جميع الكون في قبضته. وهكذا إن لم تنطفئ جذوة عقلك ولم تفقد بصيرة قلبك فستفهم: إن جعل الشيء الواحد كل شيء بسهولة مطلقة وانتظام كامل وجعل كل شيء شيئاً واحداً بميزان دقيق وانتظام رائع وبمهارة وإبداع، ليس إلا علامة واضحة وآية بيّنة لخالق كل شيء وصانعه.

متنوعة كثيرة، ثم رأيت أنه يأخذ في قبضته الحديد والحجر والعسل والدهن والماء والتراب فيصنع منها الذهب الخالص، فستحكم حتماً أنه يملك مهارة معجزة تخصه وقدرة مهيمنة على التصرف في الموجودات، بحيث أن جميع عناصر الأرض مُسخّرة بأمره وجميع ما يتولد من التراب منفذ لحكمه فإن تعجب من هذا فإن تجلي القدرة الإلهية وحكمتها في (الحياة) لهو أعجب من هذا المثال بألف مرة،،

نعم، إن دستور (التعاون) الجاري الظاهر ابتداء من جري الشمس والقمر، وتعاقب الليل والنهار وترادف الشتاء والصيف... إلى إمداد النباتات للحيوانات الجائعة، وإلى سعي الحيوانات لمساعدة الإنسان الضعيف المكرم، بل إلى وصول المواد الغذائية - على جناح السرعة - لإغاثة الأطفال النحاف وإمداد الفواكه اللطيفة، بل إلى خدمة ذرات الطعام لحاجة حجيرات الجسم... كل هذه الحركات الجارية وفق دستور (التعاون) تري - لمن يفقد بصيرته كلياً - أنها تجري بقوة مربٍ واحد كريم مطلق الكرم، وبأمر مدبر واحد حكيم مطلق الحكمة.

فهذا التساند وهذا التعاون وهذا التجاوب وهذا التعانق وهذا التسخير وهذا الانتظام الجاري في هذا الكون، يشهد شهادة قاطعة أن مدبراً واحداً هو الذي يديره، ومربياً أحداً يسوق الجميع في الكون. زد على ذلك أن الحكمة العامة - الظاهرة بداهة - في خلق الأشياء البديعة وما تتضمنه من عناية تامة وما في هذه العناية من رحمة واسعة وما على هذه الرحمة من أرزاق منثورة تفي حاجة كل ذي حياة وتعيشه وفق حاجاته... كل ذلك ختم عظيم للتوحيد له من الظهور والوضوح ما يفهمه كل من لم تنطفئ جذوة عقله، ويراه كل من لم يعم بصره.

إن إسناد الخلق إلى الفرد الواحد الأحد يجعل خلق جميع الأشياء سهلاً كالشيء الواحد، وبعكسه إذا أسند إلى الطبيعة والأسباب فخلق الشيء الواحد يكون صعباً ممتنعاً كخلق جميع الأشياء.. فإليك بعض الأمثلة:

إذا أحيلت إدارة ألف جندي إلى ضابط واحد وأحيلت إدارة جندي واحد إلى عشرة ضباط، فإن إدارة هذا الجندي تكون ذات مشكلات وصعوبات بمقدار عشرة أضعاف إدارة تلك الفرق من الجنود وذلك لأن الأمراء العديدين سيعادي بعضهم بعضاً، وستتعارض أوامرهم حتماً، فلا يجد ذلك الجندي راحة بين منازعة أمرائه. بعكسه تماماً ذلك الضابط الذي يدير بأوامره فرقة كاملة من الجنود وكأنه يدير جندياً واحداً وينفذ خطته ومايريده من الفرقة بتدبيره كل شيء بسهولة ويسر، علماً أنه يتعذر الوصول إلى هذه النتيجة إذا ترك الأمر إلى جنود سائبين.

إن الكرة الأرضية مأمورة وموظفة من لدن (الفرد الواحد) سبحانه، وهي كالجندي المطيع لله الواحد الأحد. فحينما تستلم الأمر الواحد، الصادر من آمرها الأحد، تهب منتشية بأمر مولاها وتنغمر في جذبات وظيفتها في شوق عارم، وتدور - كالمريد المولوي العاشق عند قيامه بالدوران لدى سماعه أنغام الناي فتكون وسيلة لحصول المواسم الأربعة، واختلاف الليل والنهار، والكشف عن مناظر خلابة لقبة السماء المهيبة وتبديلها باستمرار كتبدل المشاهد السينمائية.. وهكذا ترى السهولة المطلقة في تنفيذ جندي واحد - الأرض - لأمر واحد، صادر عن آمر واحد فيقوم بمثل هذا الدوران، ويكون سبباً لحصول أمثال هذه النتائج الجليلة، حتى لكانت الأرض هي القائد لتلك المناورة العسكرية المهيبة بين نجوم الكون..

الذين يحيلون أمر الخلق والإيجاد في هذا الكون البديع إلى

الأسباب وإلى الطبيعة يهوون في جهل مركب سحيق كهذا. وذلك لأن مظاهر الإبداع واضحة على آثار الأسباب والطبيعة نفسها، فهي مخلوقة كسائر المخلوقات. فالذي خلقها - على هذه الصورة البديعة - هو الذي يخلق آثارها ونتائجها أيضاً، ويظهرها معاً.. فالذي خلق البذرة هو الذي أنشأ عليها شجرتها، وهو الذي يخرج ثمارها وأزهارها من أكمامها.. فالخالق والمدبر واحد أحد.

أما الذين لا يؤمنون بالتوحيد ولا يسلمون أمر الخلق والإيجاد إلى الواحد الأحد، فقد أصبحوا ملزمين بقبول سلسلة غير متناهية، وغير معقولة، وبل مستحيلة من الأوهام، إذ أن كل جزء بحاجة إلى جزء آخر وله قوانينه الخاصة وهذا بدوره بحاجة إلى قوانين أخرى لتكملة الجزء الآخر.. وهكذا يستمرون في سلسلة لا معنى لها ولا نهاية..!

المحال الثاني:

هو أنه إن لم يسند خلق كل شيء إلى الواحد الأحد القدير ذي الجلال، وأسند إلى الأسباب المادية يلزم عندئذ أن يكون لأغلب عناصر العالم وأسبابه دخل وتأثير في وجود كل ذي حياة.. أليس كذلك؟

والحال أن اجتماع الأسباب المتضادة والمتباينة فيما بينها، بانتظام تام، وبميزان دقيق وباتفاق كامل في جسم مخلوق صغير - كالذباب مثلاً - هو محال ظاهر إلى حد يرفضه من له عقل بمقدار جناح ذبابة، ويرده قائلاً: هذا محال.. هذا باطل.. هذا غير ممكن..!

ذلك لأن جسم الذباب الصغير ذو علاقة مع أغلب عناصر الكائنات، ومع مظاهرها وأسبابها المادية، بل هو خلاصة مستخلصة منها، فإن لم يسند إيجاده إلى القدرة الإلهية المطلقة، يلزم أن تكون تلك الأسباب

المادية حاضرة ومحتشدة جنب ذلك الجسم مباشرة عند إيجاده، بل يلزم أن تدخل في جسمه الضئيل، بل يجب دخولها في حجيرة العين التي تمثل نموذج الجسم، ذلك لأن الأسباب إن كانت مادية يلزم أن تكون قرب المسبب وداخلة فيه، وعندئذ يقتضي قبول دخول جميع العناصر في جميع أركان العالم مع طبائعها المتباينة في ذلك المسبب دخولًا مادياً، وعملها في تلك الحجيرة المتناهية في الصغر بمهارة وإتقان.

المحال الثالث:

هو أن الموجود إن كانت له وحدة واحدة، فلا بد أن يكون صادراً من مؤثر واحد ومن يد واحدة، حسب مضمون القاعدة البديهية المقررة (الواحد لا يصدر إلا عن واحد) فإن كان ذلك الموجود في غاية الانتظام والميزان، وفي منتهى الدقة والإتقان وكان مالكاً لحياة جامعة، فمن البداهة أنه لم يصدر من أيد متعددة قط بل لا بد أنه صادر من يد واحدة لواحد أحد قدير حكيم، لذا فإن إسناد الموجود المنتظم المتناسق الموزون الواحد إلى أيدي الأسباب الطبيعية العمياء الصماء الجامدة غير المنضبطة، والتي لا شعور لها ولا عقل، وهي في اختلاط شديد يزيد من عماها وصممها، ثم الادعاء بأن تلك الأسباب هي التي تقوم بخلق ذلك الموجود البديع واختياره من بين إمكانات واحتمالات لا حد لها وأقول إن قبول هذا الإسناد والادعاء هو في الحقيقة قبول لمئة محال ومحال، إذ هو بعيد كل البعد عن جميع مقاييس العقل وموازينه..!

المسألة الثانية:

وهي قولهم عن الشيء: (تشكّل بنفسه). فهي تنطوي على محالات كثيرة، ويتضح بطلانها ومحاليتها من نواح كثيرة جداً إلا أنني سوف

أتناول هنا ثلاث محالات كنماذج ليس إلا:

المحال الأول: إنك أيها الجاحد العنيد موجود بلا شك، وإنك لست من مادة بسيطة وجامدة تأبى التغيّر، بل أنت معمل عظيم متقن الصنع، أجهزته دائمة التجدد. وأنت كالقصر المنيف أنحاؤه دائمة التحول.. فذرات وجودك تعمل دوماً وتسعى دون توقف، وترتبط بوشائج وأواصر مع مظاهر الوجود في الكون من حولك، فهي في أخذ وعطاء مع الكائنات، وبخاصة من حيث الرزق، ومن حيث بقاء النوع.

إن الذرات العاملة في جسدك تحتاط من أن تخل بتلك الروابط، وتتحاشى أن تنفصم تلك العلاقات فهي حذرة في تصرفها هذا، وتتخذ موقفاً ملائماً لها وفق تلك العلاقات كأنها تنظر إلى جميع الكائنات وتشاهدها، ثم تراقب موقعك أنت منها، وأنت بدورك تستفيد حسب ذلك الوضع الخارق لتلك الذرات وتنتفع وتتمتع بمشاعرك وحواسك الظاهرة والباطنة.

فإن لم تعتقد أن تلك الذرات موظفات صغيرات لدى القدير الأزلي، ومأمورات مسخرات منقادات لقوانينه سبحانه، أو هي جنود مجندة في جيشه العظيم، أو هي نهايات قلم القدر الإلهي، أو هي نقاط ينقطها قلم القدرة الإلهية.. لزمك أن تقول إن لكل ذرة عاملة - في عينك مثلا - عيناً واسعة بصيرة، ترى جميع أجزاء جسدك ونواحيه، وتشاهد جميع الكائنات التي تربط بها وتعلم جميع ماضيك ومستقبلك، وتعرف أصلك وآباءك وأجدادك مع نسلك وأحفادك وتدرك منابع عنصرك، وكنوز رزقك.. فهي إذن ذات عقل جبار..!

المحال الثاني: إن جسمك أيها الإنسان يشبه قصراً فخماً عامراً، له من القباب ألف قبة وقبة، وكل قبة من قبابه معلقة فيها الأحجار ومرصوصة بعضها إلى البعض الآخر في بناء محكم دون عمد. بل إن وجودك - لو فكرت - هو أعجب من هذا القصر بآلاف المرات، لأن قصر جسمك في تجدد مستمر يبلغ الكمال في الانتظام والروعة.

فلو صرفنا النظر عما تحمله من روح ومن قلب ومن لطائف معنوية وهي معجزة بذاتها، وأخذنا بنظر الاعتبار والتفكر عضواً واحداً فقط من أي عضو كان من بين أعضاء جسدك نراه شبيهاً بمنزل ذي قباب. فالذرات التي فيه قد تعاونت وتعانقت بعضها مع البعض الآخر، في انتظام تام وموازنة كاملة - كالأحجار - وكونت بناءً خارقاً، وصنعة رائعة بديعة، فأظهرت للعيان معجزة عجيبة من معجزات القدرة الإلهية (كالعين واللسان) مثلاً.

فلو لم تكن هذه الذرات مأمورة منقادة لأمر الصانع القدير، فإن كل ذرة منها إذن لا بد أن تكون حاكمة حكماً مطلقاً على بقية ذرات الجسد ومحكومة لها حكماً مطلقاً كذلك، وأن تكون مثل كل منها، وضد كل منها - من حيث الحاكمية - في الوقت نفسه وأن تكون مناط أغلب الصفات الجليلة التي لا يتصف بها إلا الله الخالق سبحانه وتعالى، وأن تكون مقيدة كلياً وطليقة كلياً في الوقت نفسه..

فالمصنوع الواحد المنتظم والمنسق الذي لا يمكن أن يكون - بسر وحدانيته - إلا أثراً من آثار الواحد الأحد محال أن يسند إلى تلك الذرات غير المحدودة، بل هو مئة محال و محال..!

المحال الثالث: إن لم يكن وجودك هذا قد كتب بقلم الواحد الأحد القدير الأزلي، وكان مطبوعاً بمطابع الطبيعة والأسباب، فيلزم عندئذ وجود قوالب طبيعية بعدد ألوف الألوف من المركبات المنتظمة العاملة في جسمك، والتي لا يحصرها العد، ابتداءً من أصغر الخلايا العاملة بدقة متناهية وانتهاء بأوسع الأجهزة العاملة فيه.

ولفهم هذا المجال نأخذ الكتاب الذي بين أيدينا مثلاً فنقول:

إن اعتقدت أن هذا الكتاب مستنسخ باليد، فيكفي إذن لاستنساخه قلم واحد، يحركه علم كاتبه ليدوّن به مايشاء، ولكن إن لم يعتقد أنه مستنسخ باليد ولم يسند إلى قلم الكاتب، وافترض أنه قد تشكل بنفسه أو أسندت كتابته إلى الطبيعة فيلزم عندئذ أن يكون لكل حرف من حروفه قلم معدني خاص به، ويكون عدد الأقلام بعدد تلك الحروف - بمثل وجود الحروف المعدنية في المطبعة والتي هي بعدد الحروف وأنماطها - أي يلزم وجود أقلام بعدد الحروف بدلاً من قلم واحد للاستنساخ، وقد يكون هناك في تلك الحروف، حروف كبيرة مكتوب فيها بخط دقيق ما في صحيفة كاملة، فيلزم إذن لكتابة مثل هذه الحروف الكبيرة آلاف الأقلام الدقيقة.

والآن ماذا تقول لو كانت تلك الحروف متداخلة بعضها بالبعض الآخر بانتظام كامل متخذة هيئة جسدك وشكله؟! فيلزم عندئذ أن يكون لكل جزء من أجزاء كل دائرة من دوائره المذكورة قوالب عديدة بعدد تلك المركبات التي لا يحصرها العد!

هب أن تقول لهذه الحالة المتضمنة لمئة محال في محال، أنها ممكنة الحدوث! فحتى في هذه الحالة - على فرض إمكانها - أفلا يلزم لصنع تلك الأقلام وعمل تلك القوالب والحروف المعدنية أقلام وقوالب

وحروف بعددها لتصب وتسكب فيها إن لم يسند صنعها جميعاً إلى قلم واحد؟ ذلك لأن جميعها مصنوعة ومحدثة ومنتظمة ومفتقرة إلى صانع ليصنعها، ومحدث ليحدثها وهكذا الأمر يتسلسل كلما أوغلت فيه. فافهم من هذا مدى سقم هذا الفكر الذي يتضمن محالات وخرافات بعدد ذرات جسمك!

المسألة الثالثة:

والتي هي قولهم عن الشيء: (اقتضته الطبيعة) فهذا الحكم له محالات كثيرة جداً، أيضاً سوف أذكر منها ثلاث على سبيل المثال:

المحال الأول: هو الإتقان والإيجاد المتسمان بالبصيرة والحكمة الظاهران في الموجودات ظهوراً جلياً ولا سيما في الأحياء،فإن لم يسندا إلى قلم (القدر الإلهي) وإلى قدرته المطلقة، وأسندا إلى (الطبيعة) العمياء الصماء الجاهلة وإلى (القوة) يلزم أن توجد الطبيعة - من أجل الخلق - مطابع ومكائن معنوية لا حد لها في كل شيء أو تدرج في كل شيء قدرة قادرة على خلق الكون كله، وحكمة مدبرة لإدارة شؤونه كلها.

مثال ذلك: إن تجليات الشمس وانعكاساتها الضوئية وبريق لمعانها المشاهد على قطرات الماء الرقراقة المتلألئة، أو على القطع الزجاجية المتناثرة هنا وهناك على سطح الأرض، مما يخيل للناظر السطحي النظر أنها صور لشميسات مثالية. فإن لم تنسب هذه الانعكاسات واللمعات إلى الشمس الحقيقية التي تطالعنا بشعاعها الغامر يلزم الاعتقاد بشمس طبيعية فطرية صغيرة ظاهرية تملك صفات الشمس نفسها وتتصف بخصائص موجودة وجوداً فعلياً في تلك القطعة الزجاجية الصغيرة - التي لا تسع لأدنى شيء - أي يلزم الاعتقاد بوجود شموس بعدد ذرات القطع الزجاجية.

وفي ضوء هذا المثال نقول: إن لم يسند خلق الموجودات والأحياء إسناداً مباشراً إلى تجليات أسماء الله الحسنى الذي هو نور السماوات والأرض يلزم الاعتقاد إذن بوجود طبيعة وقوة تملكان قدرة مطلقة وإرادة مطلقة مع علم مطلق وحكمة مطلقة في كل موجود من الموجودات، ولاسيما الأحياء، أي يلزم قبول ألوهية وربوبية في كل الموجودات.

المحال الثاني: هو أن هذه الموجودات التي هي في غاية الانتظام، وفي منتهى الروعة والميزان، وفي تمام الاتقان، وكمال الحكمة والاتزان، إن لم تسند إلى من هو قدير مطلق القدرة وحكيم مطلق الحكمة وأسندت إلى الطبيعة يلزم الطبيعة أن تحضر في كل حفنة تراب، معامل ومطابع بعدد معامل أوروبا ومطابعها، كي تتمكن تلك الحفنة من أن تكون منشأ الأزهار و الثمار الجميلة اللطيفة، لأن تلك الحفنة من التراب التي تقوم بمهمة مشتل صغير للأزهار تظهر قابلية فعلية لاستناد وتصوير ما يلقى فيها بالتناوب من بذور جميع أزهار العام وثماره، وبأشكالها، وهيئاتها المتنوعة، وألوانها الزاهية. فإن لم تسند هذه القابلية إلى قدرة الفاطر الجليل القادر على كل شيء.. فلا بد إذن من أن توجد في تلك الحفنة ماكينة معنوية طبيعية خاصة لكل زهرة من أزهار العالم وإلا لا يمكن أن يظهر ما نشاهده من أنواع الأزهار والثمار إلى الوجود! إذ البذور - كالنطف والبيوض أيضاً - موادها متشابهة اختلط وعجن بعضها ببعض بلا شكل معين وهي مولد الماء ومولد الحموضة والكربون والآزوت. علماً أن كلًا من الهواء والماء والحرارة والضوء أشياء بسيطة لا تملك عقلًا أو شعوراً، وهي تتدفق كالسيل في كل شيء دونما ضابط. فتشكيل تلك الأزهار التي لا تحد من تلك الحفنة من التراب مصانع ومطابع معنوية بمقاييس صغيرة جداً أكثر مما في أوروبا من مصانع ومطابع، كي تتمكن من أن تنسج تلك المنسوجات الحية التي لا تعد وتطرز تلك النقوش الزاهية المتنوعة التي لا تحصى.

نظرية التطور

فيا لبعد ما يحمله الطبيعيون من فكر إلحادي عن جادة العقل السليم! اعلم هذا وقس مدى بعد أولئك الذين يدّعون أنهم عقلاء وعلميون عن موازين العقل والعلم بتوهمهم أن الطبيعة موجدة للأشياء..

ولسائل أن يسأل: صحيح أن محالات كثيرة ومعضلات عظيمة تنجم عندما يسند خلق الموجودات إلى الطبيعة، ولكن كيف تزول هذه المشكلات وتنحل هذه المعضلات عندما نسند عملية الخلق برمتها إلى الواحد الأحد الفرد الصمد؟ وكيف ينقلب ذلك الامتناع الصعب إلى الوجوب السهل؟

الجواب: إن تجليات الشمس وانعكاساتها - كما ذكرت في المحال الأول - أظهرت نفسها بكل سهولة، ومن دون تكلف أو صعوبة في جميع المواد ابتداءً من الجامد الصغير المتناهي في الصغر - كقطع الزجاج - إلى أوسع السطوح للبحار والمحيطات، فأظهرت على الكل فيضها وأثرها في منتهى السهولة، وكأن كلاً منها شميسات مثالية. فلو قطعت نسبة تلك الانعكاسات إلى الشمس الحقيقية، فلا بد من الاعتقاد بوجود شمس طبيعية في كل ذرة من الذرات وجوداً ذاتياً خارجياً. وهذا ما لا يقبله عقل، بل هو ممتنع ومحال.

فكما في المثال فإن إسناد خلق كل موجود إسناداً مباشراً إلى الواحد الأحد الخالق الفرد الصمد فيه من السهولة المتناهية بدرجة الوجوب، إذ يمكن إيصال ما يلزم أي موجود إليه، بكل سهولة ويسر، وذلك بالانتساب وبالتجلي. بينما إذا ما قطع ذلك الانتساب وانقلب الاستخدام والتوظيف والطاعة إلى الانفلات من الأوامر والعصيان، وترك كل موجود طليقاً يسرح كيفما يشاء، أو أسند الأمر إلى الطبيعة فستظهر مئات الألوف من المشكلات والمعضلات بدرجة الامتناع حتى نرى أن خلق ذبابة صغيرة يقتضي أن تكون الطبيعة العمياء مالكة لقدرة مطلقة تتمكن بها من خلق الكون كله، وأن تكون - مع

ذلك - ذات حكمة بالغة تتمكن بها من إدارته حيث إن الذبابة - رغم صغرها - بديعة الصنع تنطوي على أغلب مكونات الكائنات وكأنها فهرس مختصر لها..

وهذا ليس بمحال واحد فحسب بل ألف ألف محال ومحال..!

المحال الثالث:

نوضح هذا المحال بمثالين اثنين هنا:

المثال الأول: يدخل إنسان بدائي ساذج التفكير، لم يكن يملك أي تصور حضاري مسبق قصراً فخماً بديعاً، يزهو بزينته، ويختال بأرقى ما وصلت إليه الحضارة من وسائل الأبهة والراحة، ويتلألأ بأضوائه في عتمة فلاة خالية موحشة فيدلف إليه ويدور في أرجائه فتشدهه براعة بنائه ونقوش جدرانه وروعة إتقانه.. وبكل سذاجة تصوره وبلاهته يمنح القصر حياة ويعطيه قدرة تشييد نفسه بغرفه وبهائه وصوره الجميلة ونقوشه الأخاذة، لا لشيء إلا لكونه قاصراً عن تصور وجود أحد - خارج هذا القصر - وفي هذه الفلاة يمكنه أن ينسب إليه بناء هذا القصر، لذا فقد طفق يتحرى عن (الباني) داخل القصر لعله يعثر عليه بين أشياء القصر، فما من شيء وقع عليه بصره إلا وتردد فيه وشك في كونه قادراً على إيجاد مثل هذا القصر الذي يملأ أقطار النفس والعقل بروعة صنعه وجمال بنائه. وتقوده قدماه إلى زاوية من زوايا القصر ويتعثر فيها فجأة على دفتر ملاحظات كانت قد دونت فيه خطة مفصلة لعملية بناء القصر، وخط فيه أيضاً فهرس موجوداته وقوانين إدارة ممتلكاته. ورغم أن ذلك الدفتر كمحتوياته ليس من شأنه تشييد القصر وتزيينه، إذ لا يملك يداً يعمل بها، ولا بصيرة يبصر بها. إلا أنه تعلق به إذ وجده متطابقاً بمحتوياته، مع مجاميع

أشياء القصر، ومنسجماً مع سير العمل فيه - إذ هو عنوان قوانين الله العلمية - لذا قال مضطراً (إن هذا الدفتر هو الذي شيد هذا القصر ونظمه وزينه وهو الذي أوجد الأشياء فيه ورتبها هذا الترتيب ونسقها هذا التنسيق)..! فكشف بهذا الكلام عن مدى عمق جهله وتأصل حماقته.

وعلى غرار هذا المثال تماماً يدلف إلى قصر العالم العظيم.. - الذي هو أدق نظاماً وأكمل إتقاناً وأجمل صنعاً وأزهى جمالًا من ذلك القصر الصغير المحدود المذكور آنفاً في المثال، حيث لا يقبل المقايسة والموازنة معه، فكل ناحية من نواحيه تشع معجزات بديعة وحكماً سامياً - يدلف واحد ممن يدينون بفكرة الطبيعة وينكرون عظمة الألوهية إلى هذا القصر.. ويبدأ بالبحث عن السبب (الموجد) ضمن الممكنات والمخلوقات! فيرى قوانين السنن الإلهية، وفهارس الصنعة الربانية، والتي يطلق عليها خطأ اسم الطبيعة التي يمكن أن تكون شبيهة بصفحة من كراسة - التغيير والتبديل - لقوانين إجراءات القدرة الإلهية، وبمثابة لوحة (المحو والإثبات) للقدر الإلهي.

المثال الثاني: يدخل إنسان معزول عن عالم المدنية والحضارة، وسط معسكر مهيب فيبهره ما يشاهد من تدريبات متنوعة يؤديها - بغاية الانتظام والإتقان ومنتهى الطاعة والانقياد - جنود هذا المعسكر، فيلاحظ حركاتهم المنسقة وكأنها حركة واحدة. يتحرك الجميع - فوجاً ولواءً وفرقة - بحركة فرد واحد منهم، ويسكن الجميع بسكونه، يطلق الجميع النار إطلاقاً واحداً إثر أمر يصدره ذلك الفرد، فحار في أمره، ولم يكن عقله الساذج ليدرك أن قيادة قائد عظيم هو الذي ينفذ أوامره بأنظمة الدولة وأوامر السلطان، فتخيل حبلاً يربط أولئك الجنود بعضهم بالبعض الآخر.. ثم بدأ يتأمل خيالًا مدى أعجوبة هذا الحبل الموهوم. فزادت حيرته واشتد ارتباكه. ثم يمضي إلى شأنه.

يذهب إلى الحج وبيت الله الحرام في مكة أو يشاهدها على التلفاز، ويشاهد جموع المصلين خلف رجل واحد يمتثلون لندائه في قيامهم وقعودهم وسجودهم وركوعهم، ولما لم يكن يعرف شيئاً عن الشريعة الإلهية والدساتير المعنوية لأوامر صاحب الشريعة فإنه يتصور بأن هذه الجماعة مرتبطة ببعضها البعض بحبال مادية وأن هذه الحبال قد قيدت حركة الجماعة وأسرتهم وهي التي تحركهم وتوقفهم عن الحركة.

وهكذا يمضي في سبيله وقد امتلأ ذهنه بأخطاء تصوراته التي تكاد تثير الهزء والسخرية حتى لدى أشد الناس وحشية وهمجية.

ففي ضوء هذا المثال، يأتي ملحد أو أحد من جماعة «لا أدري» إلى هذا العالم الذي هو معسكر مهيب رائع لجنود السلطان الجليل، وهو مسجد عظيم بارع يعظم فيه ذلك المعبود الأزلي ويقدّس، يأتيه وهو يحمل فكرة (الطبيعة) الجاحدة.. فيتصور (القوانين المعنوية)التي يشاهد آثارها في ربط أنظمة الكون البديع والنابعة من (الحكمة) البالغة للبارئ المصور سبحانه، يتصورها كأنها قوانين مادية، فيتعامل معها في أبحاثه كما يتعامل مع المواد والأشياء الجامدة..

ويتخيل أحكام قوانين الربوبية التي هي قوانين اعتبارية ودساتير الشريعة الفطرية الكونية للمعبود الأزلي، والتي هي بمجموعها معنوية بحتة، وليس لها وجود سوى وجود علمي، يتخيلها وكأنها موجودات خارجية ومواد مادية..

ويقيم تلك القوانين الصادرة من العلم الإلهي والكلام الرباني والتي لها وجود علمي فقط مقام القدرة الإلهية ويملّكها الخلق والإيجاد ويطلق عليها اسم (الطبيعة) متصوراً القوة التي هي تجل من تجليات الخالق، بأنها صاحبة قدرة فاعلة مستقلة القدرة بذاتها.

والخلاصة،،،

إن الطبيعة التي يتعلق بها الطبيعيون، ذلك الأمر الموهوم الذي ليس له حقيقة، إن كان ولا بد أنها مالكة لوجود حقيقي خارجي فإن هذا (الوجود) إنما هو صنعة صانع ولن يكون صانعاً وهو نقش ولن يكون نقاشاً، ومجموعة أحكام ولن يكون حاكماً، وشريعة فطرية ولن يكون شارعاً، وستار مخلوق للعزة ولن يكون خالقاً.

وحاصل الكلام: مادامت الموجودات موجودة فعلًا، والعقل يعجز عن تصور أكثر من أربع طرق للوصول إلى حدوث الموجود، وقد أثبت إثباتاً قاطعاً بطلان ثلاث من تلك الطرق الأربع، وذلك ببيان ثلاثة محالات ظاهرة جلية في كل منها.

أيهما أسهل على الفهم، وأقرب معقولية إلى الذهن؟ تصور (ساعاتي) يصنع تروس الساعة ومعداتها، ثم ينظمها وفق ترتيب تروسها، ويوازن بين حركات عقاربها بدقة متناهية، أم أن نتصور الساعاتي يصنع في تروس الساعة وعقاربها ودقيق آلاتها ماكينة خارقة الفعال يسلّم صنع الساعة إلى جمادية أيديها؟! قل معي: أليس هذا كلاماً فارغاً ومحالاً وخارجاً عن حدود الإمكان؟ فهيا خاطب أنت عقلك المجحف وكن أنت القاضي والحكم..

❒ ❒ ❒

الخاتمة

حاولت خلال هذا الكتاب عرض الآتي:

مهما تكلمت بعض المحافل العلمية وبعض العلماء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، ومهما أبدوا من اهتمام ومهما ورد في بعض كتبهم أو في محاضراتهم فلا يوجد أي سند قوي ولا أي برهان أو حجة قوية في تأييد نظرية التطور. إذ لم يتم العثور على المتحجرات الحقيقية التي تربط الإنسان بالقرد. وتمت عمليات تزييف في بعض المتحجرات، كما جمعت متحجرات أخرى من أماكن مختلفة وأكملت فجواتها وأقسامها الناقصة بعمليات مونتاج كما رأينا.

ويوجد مواضيع أخرى لا تتعلق بالمتحجرات، إنما بالبنية الخيالية للإنسان، كالدماغ والأحاسيس والجينات، فعلم الجينات لوحده يحتاج لبحث وكتب لتفسيره ومشاهدة مدى تعقيده وانتظامه وعبقريته، إن تركيب جزيئات الـ DNA وبنيتها تستوجب وجود علم وقدرة لانهائية وراءها، ولا تبقي أي فرصة أو احتمال لتكونها نتيجة المصادفات أو أي تدخل خال من الشعور والإدراك. وجميع ما زعم أنها أدلَّة لا تعدو أن تكون فرضيات أو تأويلات بعيدة ومصطنعة. وقد ملئت جميع الفجوات الكبيرة الموجودة في هذه النظرية بفرضيات خيالية. أما بعض المزاعم التي طرحت انطلاقاً من وجود بعض المشابهات فهي تقييمات وتفسيرات أخذت بنية الكائنات

الحية بنظر الاعتبار وأهملت وظائفها في الحياة. لذا فهذه التقييمات والتفسيرات لا ترتقي إلى مستوى البراهين.

والشيء الحيوي في هذا الموضع أن ما تم تقديمه كأدلة في هذا الصدد، إنما تم من قبل المؤمنين بهذه النظرية، لذا كان من الضروري فحص وتدقيق هذه المزاعم بأكملها. فكما أن المصادفات لا تملك أي موقع مهما كان صغيراً في العالم كذلك يستحيل قيام أي كائن حي بخلق نفسه بنفسه من العدم بالأخص في هذه الدقة الغير متناهية من التنظيم والإدراك. والتجارب التي قام بها العالم الفرنسي «باستور»، وكذلك التجارب الأشمل التي تمت في هذا الصدد ردت ونقضت فكرة الظهور التلقائي للكائنات الحية. وحتى إن فرضنا المستحيل وظهرت فروق في كائن حي نتيجة بعض الشروط والظروف فهي لا تكون مستنداً أو سبباً للتحول إلى نوع آخر، كما لم يتم العثور على أي مثال على هذا. أي أن تلك الفروق كانت نتيجة سماح بنية وتركيب ذلك الحي لها..

وعلاوة على هذا فإن جميع الأديان السابقة وجميع الأنبياء وجميع الكتب السماوية المقدسة تذكر بشكل واضح أن كل شيء - وضمنه الإنسان طبعاً - قد خلق من قبل الله تعالى. أي لا تفتح أي باب لقبول منطق نظرية التطور.

لقد قمت بشرح للخطوط العريضة ونقلت رسالة وكنت وسيطاً لا أكثر بين رجال الدين الذين تحدوا هذه القضية وتكلموا عنها بالمنطق وبين روّاد ومؤمني نظرية التطور، وطبعاً تحتاج هذه المسألة وتتسع لشرح تفصيلي أكثر. وأنا أضرع إلى الخالق مبدياً عجزي وفقري، وجاعلاً هذا العجز والفقر شفيعاً لي، وسائلاً المولى تعالى أن يوفق العلماء المختصين في هذا الموضوع لتناوله بشروح أكثر تفصيلاً،

ومن جميع جوانبه، لكي ينقذوا العالم وجامعاته الكبرى وينقذوا الأجيال من الانخداع بهذه النظرية أو الانخداع بالبقاء في دوامة ال «لا أدري».

وأنا مطمئن بأنهم سينجحون في هذا. وأطالب رجال الدين المسؤولين أن يكون في جامعاتنا فروع واختصاصات تدعى فلسفة الدين، وذلك تحدياً لمدرسة فيورباخ وهيغل، لشرح الفلسفة التي تقام عليها الأديان والأخلاق والحياة والخلق وكل مابين السماء والأرض.

وأخيراً من يعلم ربما كان القرد ممسوخاً من الإنسان وهو نتيجة لتعثر في بنية الإنسان وليس الإنسان متطوراً من بنية القرد.

وأطالب أهل العلم والمختصين أن يبحثوا في ذلك الموضوع وفي بنية القرد ويوجدوا دراسات كثيرة حول ذلك وسأقوم بالبحث عنها والتحري حول ذلك الموضوع وأكتب عنه بحوثاً وكتباً في المستقبل.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



المراجع

1- Leakey، Richard E.& Roger Lewin.

1977 origin: The Emergence and Evolution of our Species and its possible future.E.P.Dutton، New York.(P18)

2- Leakey، Richard E.& Roger Lewin.

1977 origin: The Emergence and Evolution of our Species and its possible future.E.P.Dutton، New York.(P 18 - 9).

3- Principles of Geology 1830 (p-33).

4- Campbell، Bernard G.

1970 Human Evolution: an introduction to man's adaptation (4th printing). Aldine publishing company، Chicago.

- Cox، Barry:

1970 Prehistoric Animal. Grosset and Dunlap، New York.

5- Romer، alfred sherwood.

1971 «Major steps in vertebrate Evolution» background for man: Readings in physical Anthropology ((phyllis Dolhinow & vincent M.sarich، eds)) little، Brown & Co. Boston.

6- Romer، alfred sherwood.

1971 «Major steps in vertebrate Evolution» background for man : Readings in physical Anthropology ((phyllis Dolhinow & vincent M.sarich، eds)) little، Brown & Co. Boston.

7- Kelso، A. J.

1970 Physical Anthropology . J.B. Lippincott Co.، Philadephia.

- Pilbeam، David R:

1970 The Evolution of man. Funk and Wagnalls، New York.

8- Olson، E.C.

1965 The Evolution of life. The New American Library، New York & Toronto.

9- Cox، Barry:

1970 Prehistoric Animal. Grosset and Dunlap، New York.

10- Howell.F.Clark & the editors of time-life boks

1965 Early Man. Time-Life boks، New York.

11- Simons، Elwyn L.

1967 «the early Relatives of man» human evolution: Readings in Physical Anthropology (2nd ed. Noel korn & fred thompson، eds) holt، Rinehart & Winston ، inc. New York.

12- Pilbeam، David R:

1970 The Evolution of man. Funk and Wagnalls، New York.

13- Clark، sir wilfrid E. Le Gros.

1967 man-apes or ape-men? The story of Discoveries in africa. Holt، Rinehart & Winston، inc. New York

- Howell.F.Clark & the editors of time-life boks

1965 Early Man. Time-Life boks، New York.

- Pilbeam، David R:

1970 The Evolution of man. Funk and Wagnalls، New York.

14- Pilbeam، David R:

1970 The Evolution of man. Funk and Wagnalls، New York.

1972 the ascent of Man: an introduction to human evolution . the macmillan series in physical anthropology، New York.

15- http://www.people-press.org/2009/07/09/section-5-evolution-climate-change-and-other-issues/

16- http://ncse.com/voices

17- http://www.interacademies.net/10878/13901.aspx

18- https://en.wikipedia.org/wiki/List_of_scientific_bodies_explicitly_rejecting_Intelligent_design

19- http://www.talkorigins.org/faqs/comdesc/section2.html#atavisms_ex2

20- http://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC52649/pdf/pnas01070-0197.pdf

21- http://www.sciencedaily.com/releases/2013/10/131008102559.htm

22- http://www.nature.com/ncomms/2013/131007/ncomms3570/full/ncomms3570.html

23 - https://youtu.be/58UDTq3kaZM

المصدر :

http://ncse.com/rncse/17/6/many-scientists-see-gods-hand-evolution

24- http://ncse.com/voices

25- http://www.aljazeera.net/programs/pages/af1ea016-4280-4a0d-838f-8ca05f31c8df

26- https://en.wikipedia.org/wiki/Michael_Behe

❒ ❒ ❒

الفهرس